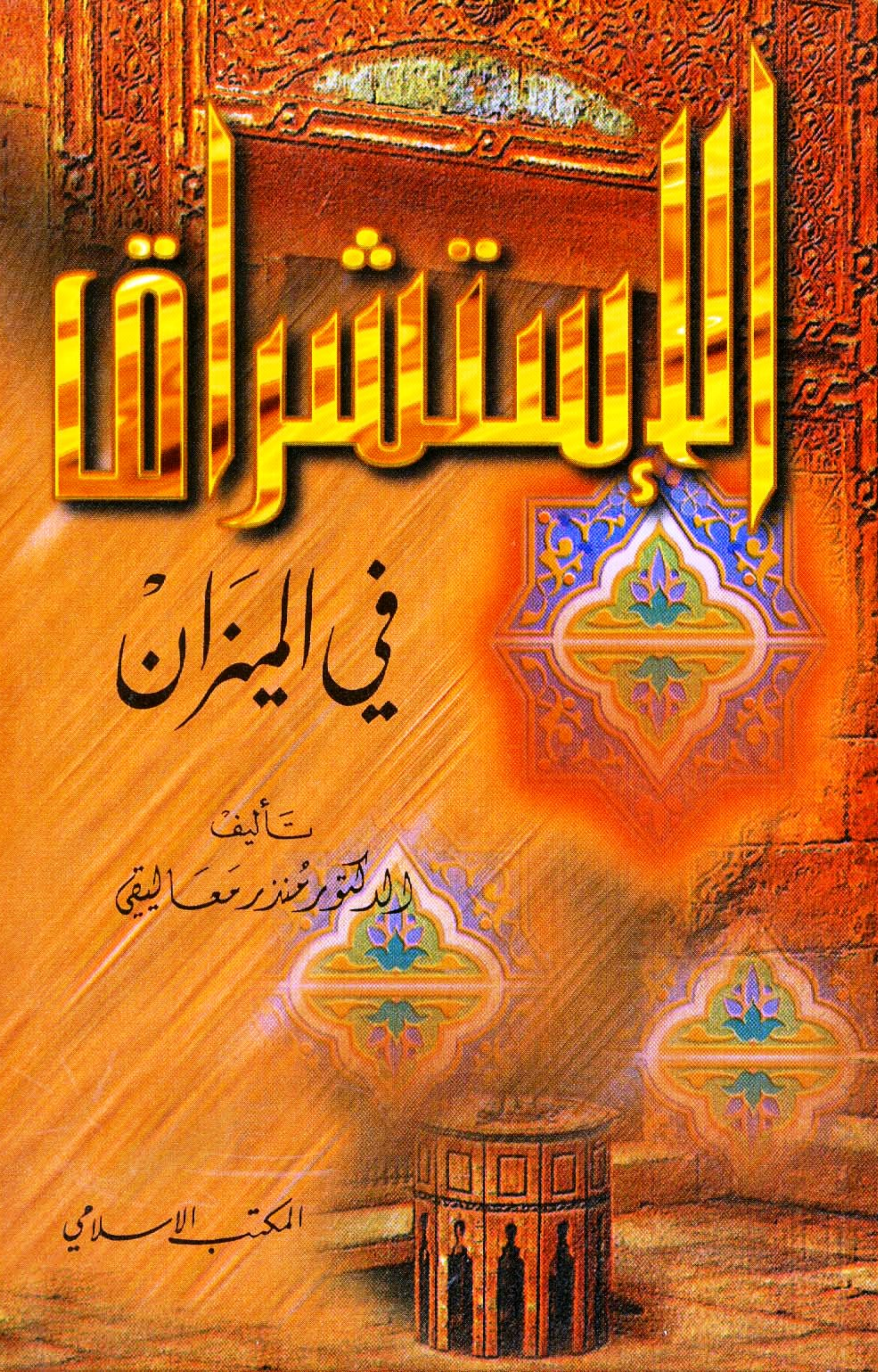


الإستشراق
في الميزان
تأليف
الدكتور منذر معاليقي
المكتب الإسلامي

الاستشراق في الميزان

تأليف
الدكتور منذر معاليقي
أستاذ أدب عصر النهضة
كلية الآداب - الجامعة اللبنانية

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

إهداء

إلى أصفياء الفكر والعقيدة
في هذه الأمة الرشيدة
أهدي هذا الكتاب

منذر معاليقي

مقدّمة

مثّل الاستشراق تياراً فكرياً في الدراسات المختلفة عن بلاد الشرق، وفي البحث عن علومه وعقائده وآدابه، وشملت كتاباته حضارته وأديانه ولغاته وثقافته، وأسهم تياره في صياغة التصورات الغريبة عن العالم العربي والإسلامي، وعبّر عن خلفيّة الصراع الحضاري ـ القديم والحديث ـ بيْن الغرب والشرق.

احتلّت ظاهرة الاستشراق حيّزاً هاماً من تاريخ البشرية، ومن الحياة العربيّة الإسلاميّة، وكوّنتْ عبر مختلف الحقب والأزمنة مَعْلماً رئيساً في مجال الفكر والثقافة والأدب. وانطلقت من دراسة الآثار العربيّة والإسلاميّة، واستطاعت أن تنقل علوم الشرق إلى الغرب، الذي أقام نهضته وبلغ أعلى مستويات التقدم والازدهار. ومن ثمّ أثرت في نهضة العرب المعاصرة والحديثة، وصبغت حياتهم بأوجه ظاهرتها المختلفة الإيجابية والسلبية، وبموضوعاتها الواسعة ـ الأدبيّة والسياسيّة والدينيّة والتاريخيّة ـ التي جعلتُها مدار بحثي

في هذا الكتاب، آملاً أن يكون إطلالة جديدة في دراسة الاستشراق - منهجه وأعماله وأبعاده - وأن يساهم في نهضة أمتنا من الكبوة الظالمة التي أوقعها فيها رجال الاستشراق وأعوانه ممّن تتلمذوا على نظريات أساتذته، والتي أخّرت مسيرة تقدّم الأمة، وأبعدتها عن المشاركة في صنع مجتمع العلم والإنسان، خاصة بعد أن أثبت العرب والإسلام وجودهما، وشمخت حضارتهما عالياً، واتسعت معارفهما بين البلدان، لأن الغرب والقوى المعادية سرعان ما وجّهت صراعها إليهما، تنازعهما السيادة، وتزاحمهما المكانة التي تبوّآها، بعد أن نال الإنسان حريته التي ناضل من أجلها آماداً طويلة، وأخذ الظلم يحسّ أنه مهدّد في دياره، ويشعر المعتدون الظالمون أنّ الخطر الآتي من بلاد الشرق بات يهدد منطلقاتهم الفكرية ويقتحم آفاقهم الثقافية. فأعدّ الغرب نفسه وحصّن مواقعه وشنّ هجوماً فكرياً وإعلامياً عندما جرّد أقلامه المعادية وأغار على الحضارة العربية والإسلامية، ووقف لفيف من كتابه وأدبائه من مختلف الجنسيات الأجنبية، ممن تفاوتت جرأتهم في اقتحام ثقافة العرب والنيل من الإسلام ورسوله، ينتهزون حالة الضعف التي اعتورت دولة العرب والإسلام وشرعوا يكيدون المؤامرات ويفتعلون الأحداث وينهشون جسم

تاريخنا البعيد والقريب، متناسين ومتعامين عن أنفس ما خلدته حضارة أمتنا في أصعب مرحلة من تاريخ البشرية، وعن أنبل ما أرّخته من تراث أدبي وعلمي، وإبداع فني وعمراني أدهش الكثير من بلاد فارس ومتنوري أوروبة الذين اتخذوا العربية لغة التواصل الفكري والإنساني، وكانوا منارة مضيئة في عوالم اللاتينية الحديثة، التي أرست أوروبة عليها نهضتها، والتي أبدعت تراثاً بنينا عليه منطلقات يقظتنا، يوم تهيأت الظروف المناسبة والأحوال الملائمة لاستعادته، لأنه أصبح جزءاً هاماً من الحضارة الإنسانية التي تختصر المسافات النفسية والجغرافية وتقوم على التعاون في نشر ذخائر كل أمة وتواصلها في مختلف ميادين الفنون والعلوم..

بيد أن العدوان على الحياة البشرية تمثل في العصر الحديث في جمع الدول الأجنبية وقواها الاستعمارية الحضارة العلمية والضغائن العدوانية، وتبلور بالتالي في امتلاك هذه الدول لمتناقضات تناحرية، جعلتها تعيث الفساد في الأرض، خاصة بعد أن نكب العلم بعدد من المستشرقين الذين لوّثوا قدسية القلم وحرّفوا تاريخ العرب، وشوّهوا سمعة الإسلام، لأنهم جعلوا من علمهم بالحق مصيدة للباطل، ومن مطامحهم الذاتية مآثر تعلو كل هدف.

إن انتصار العرب والإسلام في بقاع الأرض أصاب

شعوب العالم بالذهول والاندهاش، وإنّ معرفة أسباب قوة هذا الانتصار كانت وراء الدافع الحقيقي لحمى الاستشراق وظاهرته، التي تباينت وجهات أصحابها في كل من بلاد أوروبة وأميركا وروسيا، رحالة وعلماء ومؤرخين وباحثين، يدرسون ويترجمون. ولعلنا لا نجانب الحقيقة إن أرجعنا اهتمام هذه الدول بالعالم العربي والإسلامي إلى اهتمام قواها الاستعمارية بأوضاع الشعوب والأوطان التي تحت يديها، تغنيها درساً وتخطيطاً ومكراً، لتطيلَ فترة سيطرتها وتستمر في استنزاف خيراتها واستغلال ثرواتها، ولتعطل يقظتها وتمنع انبعاثها وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ..﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[2].

وهذا ما نلاحظه بوضوح من الكتابات المتنوعة ـ العدائية والمغرضة ـ لكثير من المستشرقين الذين مهدت أعمالهم السبيل لطلائع الغزاة والمستعمرين والصهاينة، ليدخلوا البلاد، ويحكموا الشعوب ويزوروا الحقائق،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

باستثناء قلة نستطيع أن نخرجها من سربها، لأنها كانت منصفة وعادلة، ولأن كتاباتها اتسمت بالموضوعية والدقة العلمية، وذكرت اليد البيضاء للعرب والإسلام على أوروبة، وأشارت إلى فضلهم في علوم الطب والفلك والرياضيات، وفي حفظ تراث أرسطو والحضارة اليونانية والإفريقية، في محاولة إبراز الحقيقة وإنصاف التاريخ.

في هذا الكتاب حاولنا أن نرصد موجات الاستشراق وأعماله الأدبية والسياسية، الفكرية والاجتماعية، وتابعنا آثارها المختلفة على بلادنا العربية، الإيجابية والسلبية، المؤيدة والمعارضة، وذكرنا في فصول مستقلة أبعاد الدراسات الاستشراقية على المناهج العربية، وأخطارها على المستقبل العربي، وبيّنّا ردود المفكرين العرب ومؤرخيهم في العقيدة والسياسة والأدب والتاريخ.

يتناول هذا الكتاب ـ الاستشراق في الميزان ـ دراسات المستشرقين في موضوعات لامست حياة الإنسان العربي، وتناولت علومه وآدابه ومعتقداته. تكلمتُ في الفصول الثلاثة من الباب الأول على دور الاستشراق بالقضايا اللغوية والأدبية، وعلاقته بالنهضة العربية، وبكتّابها الذين تأثروا بمقولاته، وساروا على منهاجه، سواء في دراسة اللغة وتبسيط قواعد نحوها، أو في معرفة الأدب العامي وقضية التشكيك في تراثه

القومي. وناقشت في الفصول الثلاثة الأخرى من الباب الثاني هيمنة الاستشراق السياسية والثقافية على المفاهيم العربية، ووضعت طروحه المختلفة والمتباينة في الميزان، وأعملت فيها المنطق والعلم، فغربلت مضامينها، ونخلت آثارها، وبينت معالمها في السيطرة والاحتلال، وأظهرت في النهاية أنّ جلّ المشاكل التي ظهرت في ميادين الفكر والأدب والمعتقد تعود إلى أثر الاستشراق وعلاقته بكل من الاستعمار والصهيونية.

حاولت في كتابة هذا السفر المتواضع أن ألتزم طريقة البحث العلمي والجدل المنطقي الموضوعي، فناقشت الآراء، رفضت بعضها، وأخذت بعضها الآخر، بعد تقويمه وتنقيته من العلل، وفضّلت في المحصلة الإتيان برأي اجتهادي جديد، محاولاً قدر المستطاع أن أكون موضوعياً ـ محايداً ومنصفاً، وأن أعطي البحث جواً منطقياً علمياً، وأبرز منهجية جادة، وإنْ كنت قد أخفقتُ في بعض نقاط البحث، وبانت الذاتية والموقف الشخصي، فالكمال لله وحده وليس لأحد سواه.

إنّ أهمية هذه الدراسة لا تخفى على أحد، وإنّ الحاجة ماسة في كشف المغالطات الاستشراقية ويكفيني أنني ولجت باباً له أثره الكبير في حياتنا العربية والإسلامية، وحاولت أن أسلط الأضواء على قضايا بالغة

التعقيد، بحثت فيها، وجريت وراء مضامينها كاشفاً أبعاد الأخطاء العديدة والمكائد المختلفة التي وقع بها رجال الاستشراق، ساعياً إلى كشف الحقائق وإلى خدمة الأمة التي تهدي إلى التي هي أقوم، ومنطلقاً من البواعث التي حدت بي إلى كتابة هذا البحث، والتي أستطيع أن أقول إنها ليست دراسة أكاديمية، ومادة مقررة لسنة الدبلوم الأولى، بل لأنها رغبة مني في الانتصار لقوى الحق، وإزهاق الباطل، الذي لحق بأمتنا نتيجة الكثير من المغالطات الاستشراقية المغرضة، ولأنها قضية إلزامية، فرضت نفسها علي منذ أن عايشت مع خيرة من قادة الفكر والسياسة والاجتماع قضايا الأمة المصيرية وناضلت من أجل تقدمها وتحرر بنيها من أغلال الذل والعبودية وألوان القهر السياسي والاجتماعي، وبالتالي فإنني ولجت موضوع الاستشراق، لأزن مفاهيم أصحابه، وأتعرف على مكامن الخطر فيه، لأعدّ نفسي وإخواني الطلبة وأبناء شعبي وأمتي للدفاع عما نتمسك به جميعاً من قيم دينية ومعرفة فكرية وخلقية ولتعرية بحوثه والتصدي لآرائه، بهدف إفساد مخططاته، والاطلاع على مكائده، ومعرفة شروره على العالم أجمع. العالم الذي بعثت فيه أمتنا لتكون شاهدة عليه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا﴾[1]. ولتعود من جديد تمسك عناق البشرية بكلمات السماء الخالدة، وتبني دولة الإنسان والسلام.

وهكذا جاء هذا الكتاب بعد قراءة أكثر من مائتي كتاب ومجلة، جعلته بحثاً أكاديمياً ومرجعاً هاماً لكل باحث في ميدان الاستشراق ومدارسه، ولكل طالب علم يبغي معرفة ذخائر الأمة والمكائد الهجومية التي تعرضت لها عبر مختلف الأزمنة والمراحل. وأعتقد أننا أصبحنا في حاجة إلى إعادة النظر في كثير من المفاهيم التي كنا وما زلنا نتعلق بها لتصحيحها وتحريرها من الزيف والخطأ وبالتالي أصبحنا مطالبين بإعادة صياغة قواعد مجتمعنا، والعمل على بناء أجيال واعية، تحمل أمانة العمل الإنساني، وتقدّم الحلول لقضايا العصر المعقدة، لقيام مجتمع قادر على العطاء، يحقّق العدالة ويقيم الحرية ويحمي الإنسان.

أدعو الله تعالى أن أكون قد وفقت في اختيار عرض موضوعات هذا الكتاب، آملاً أن يساهم في إثراء المكتبة العربية، ويساعد المهتمين بقضايا الأمة لما فيه خيرها وتقدمها.

والله الموفق.

منذر معاليقي

طرابلس ٢٥ ـ ١٢ ـ ١٩٩٦م

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

الباب الأول

الاستشراق وصلته بالقضايا الأدبية الساخنة

الفصل الأول: منطلقات الاستشراق ومواقفه من القضايا العربية المعاصرة.

الفصل الثاني: اللغة العربية في ملفّ المستشرقين.

الفصل الثالث: الموقف العربي من حركة الاستشراق وطروحه.



الفصل الأول

منطلقات الاستشراق ومواقفه
من القضايا العربية المعاصرة

احتلّتْ ظاهرة الاستشراق مكانةً هامةً في العالم العربي والإسلامي، ولعبتْ دوراً بارزاً في مفاهيم الفكر والأدب والقضايا الثقافيّة والدينيّة. ويُعتبر موضوع الاستشراق من أهم موضوعات النهضة العربيّة الحديثة، لأنه ترك بصماتٍ بيّنةً على معالم الحياة العربية والإسلاميّة ـ الاجتماعيّة والسياسيّة ـ وبخاصة بعد أنْ توضّحت أهداف بعض مدارسه، وانكشفتْ افتراءاته الحاقدة، التي تلاقت مع دعوات الاستعمار التغريبيّة، في تشويه التاريخ العربي والإسلامي، وتزوير أخباره ـ الساقطة والضعيفة ـ من أجل الهيمنة الفكرية والسيطرة على مقدرات المنطقة سياسياً واقتصادياً.

أسباب الاستشراق ووسائله:

صبغتْ حروب القرون الوسطى المرحلة بالطابع

الاستعماري والاقتصادي، وتركت حروبُها الصليبيّة آثاراً سلبيّةً على البلاد الأوروبيّة، وخلّفت نزعات تعصبيّة ضيّقة، اتّسمت بمظاهر الحقد والكراهية لمفاهيم العرب الفكريّة ومعتقداتهم الدينيّة، وجعلتْ بعض المؤرخين يُعيدون سبب نشأة الاستشراق إلى الناحية الدينيّة والسياسيّة، في القرن الثالث عشر الميلادي، عندما قصد بعض الرهبان بلاد الأندلس، وقاموا بترجمة القرآن والأحاديث النبويّة الشريفة، ونقلوا عدداً من الكتب العربيّة والإسلاميّة - العلمية والفلسفية - إلى لغتهم اللاتينيّة.

ويُقال إنّ حركة الاستشراق انتشر صيتُها، وذاع أمرُها، بعد حركة الإصلاح الديني الأوروبيّة التي اتجهت إلى الكتب العبرانيّة، بحكم شروحها الدينيّة، ومنها إلى الدراسات العربيّة والإسلاميّة، وإنّها تلاقتْ مع أبعاد التبشير في غاية واحدة، وكوّنا أقنوماً واحداً، اعتمدت الرغبة الدينيّة المسيحيّة فيه، طريقة التبشير للوصول إلى المسلمين وجذبهم إلى معتقدها، واستطاعت مفاعيله أن تُحدثَ تغييراتٍ في التصورات الذهنيّة والعقلية، وأنْ تؤثّر في الأنشطة السياسيّة والقضايا الأيديولوجيّة.

تباينت وجهات نظر المفكرين في ظاهرة الاستشراق - أسبابها ودوافعها - وتنوّعت الآراء في

تحديد فترتها التاريخيّة، بيْد أنّ معظم المهتمين بالأمر، من كتّاب ومؤرخين عرب أعادوا منطلقاتها الرئيسة إلى نزعة التعصّب الديني، وسمة الاستعلاء السياسي عند الغرب، وأرجعها بعضهم إلى دوافع شخصيّة، ومحاولات فردية، حين ازدهرت العلوم العربيّة في القرن الثاني عشر، وانتشرت المراكز العلمية في العالم الإسلامي[1]، وإلى حوافز ثقافية ممنْ أغوتهم فكرة الاطلاع على حياة الآخرين، والتعرّف على أحوال حياتهم الاجتماعيّة والدينيّة والحضارية. لكنّ هؤلاء المستشرقين لم يكونوا على درجة واحدة من الإخلاص للعلم والمعرفة في أبحاثهم المتنوّعة، على الرغم من أنّ معظمهم ادعى حب العلم ومنهجه العقلي، وزعم أنّ مراده تقصّي الحقائق التاريخية، والكشوف العلميّة المجردة، وجاءت مؤلفاتهم على اختلاف مقالاتها المتنوّعة، متناقضةً مع مزاعمهم، وأتت متوافقةً مع أهواء نزعتهم المتسلطة، وبخاصة بعد أن سخّروا الدراسات الدينيّة والثقافيّة لمخططات دولهم السياسيّة، وأغراضها المشبوهة، وصاغوا كتاباتٍ مغرضةً، في

---

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، مصر ١٩٧٤ ص٥٤.

مناهجَ مختلفةٍ، وصولاً للهيمنة الفكريّة والسيطرة السياسيّة. ونستطيع أن نُصنّف دراسات الفرق الاستشراقية وطوائفها فئتين:

الأولى: طائفة من الكتّاب أخلصت للدين وللحقائق العلميّة والتاريخيّة، وأثبتت وجودها في دنيا العلم والمعرفة، وأضفت على البحث العلمي الدقةَ والموضوعيّة، في المنهج والأداء، غير عابئة لنزعة أو هوى، واستطاعتْ على قلّة عددها، وضآلة كتابتها أنْ تنصف شخصياتٍ تاريخيةً بارزةً ـ عربيّة وإسلاميّة ـ وتُنزّه الدين الإسلامي وتاريخه من الافتراءات المردودة والمغالطات الضعيفة، التي قُصد منها تثبيط همم المؤيدين وإضعاف معتقد المناصرين. وكان على رأس هذه المجموعة المنصفة كل من المستشرق ليوبولد فايس ـ المعروف باسم محمد أسد ـ الذي أنصف الإسلام ورسوله، وكتب بموضوعيّة عن منهجيّة الحكم الإسلامي ونظامه، وتحدّث عن سياسته التي تهدف إلى إقامة الدولة الدستوريّة المقيّدة، والتي تحمي المواطن، وتصون الكرامة، وتؤمّن العدل والمساواة، والمستشرق المبشر إبراهيم خليل أحمد، الذي للأسف لم أهتد إلى معرفة اسمه الأعجمي الأصلي، والذي أكّد بعد أنْ هداه الله إلى الإسلام، أنّ التبشير والاستشراق دعامتان من دعائم

الاستعمار، وأنهما تقاسما الأعمال المقررة لغزو البلاد الإسلاميّة[1].

الثانية: طائفة تعمّدت الدس والتشويش، وتقصّت الهنات والهفوات، التي عرفتها المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، في مختلف المراحل، فضخّمتها محاولةً أنْ تجعل من التفاصيل والجزئيّات، قضايا عامة، ملحقةً أخطاء بعض الحكام المسلمين بالدين نفسه، بغية إضعاف مواطن القوّة، واغتنام أماكن الضعف.

وقد أكدت أكثر المصادر المتخصّصة أنّ معظم المستشرقين قد لجأوا في وسائلهم المدروسة، ومناهجهم المتّبعة، إلى مختلف وسائل الإعلام والدعاية، ولم يتركوا منفذاً، يؤمّن هدفهم، ومصلحة دولهم السياسيّة، إلاّ واستفادوا منه، سواء عن طريق التأليف والنشر، أو عن طريق الجمعيات الفكرية والمدارس والجامعات العلمية والتعليمية، وإقامة المؤتمرات والندوات، التي تجدّف من جهة بالعرب والقرآن ورسوله، وتثني من جهة أخرى على كتابات المستشرقين وأعمالهم الإنسانيّة.

---

(١) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، بيروت ١٩٨٢ ص١١٢.

فعلى صعيد التعليم يقول رئيس الجامعة الأميركية سابقاً المستر ستيفن بنروز: «برهن التعليم على أنه أثمنُ الوسائل التي استطاع المبشّرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان، وضرْب المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، وتفتيت مرتكزاتها الدينيّة والسياسيّة والاقتصادية. وعلى صعيد التأليف والنشر يُعتقد أنّ أخطر ما أتى به المستشرقون هو إصدار دائرة المعارف الإسلاميّة، التي ظهرت تباعاً من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٣٤، والتي أُعدّ لها قرابة عشرين سنة، تُرجمت إلى عدّة لغات، ويُعاد طبعها حديثاً، ويُقال إنّ مصدر الخطر الرئيس فيها هو تحريف المستشرقين في النصوص الدينيّة، وفي قراءة الأحداث السياسيّة وتحليل أبعادها، التي جاءت متوافقةً مع رغبات المستشرقين السياسيّة، وتصوّرات قادتهم الغربيّة. ونظراً لأهميّة هذا المؤلَّف ـ الموسوعة ـ فقد عبّأ كثير من هؤلاء المستشرقين أقلامَهم، وجنّدوا أنفسَهم في معرفة كيفيّة وضع السم في الدسم، كي يستسيغَ القارئ الأخبارَ والنصوص المحرّفة، وتمكنوا من أن يجعلوا من دائرتها الموسوعيّة منارةً، كانت وما زالت حجّة علميّة، ومرجعاً هاماً لكثير من الدارسين والمثقفين، الذين استطاعوا التسلل إلى داخل الصروح العلميّة والأكاديميّة، ولعْبِ أدوار رئيسة، في

توجيه الثقافة والسياسة، حسب المخطّط المرسوم، بدليل أنّ أصابع الاتهام تُشير إليهم، من خلال أعمالهم المشبوهة في المجمع اللغوي في مصر، حيث كان من أعضائه هاملتون جب ورينولد نيكلسون، وفي المجمع العلمي في بغداد ودمشق حيث كان من أعضائه كارلونالينو، الذي تحوم حوله أكثر من شبهة في مواقفه من الإسلام.

هذا فضلاً عن المؤتمرات التي عُقد أوّلها في باريس عام ١٧٨٣، ودامت الحال على هذه الطريقة، حتى وقْتٍ متأخر من القرن الحالي، حيث ظهر فشل هذه المؤتمرات، وافتضحت الخطط، وتقرّر إلغاء صفة الاستشراق، وأُعلن أنّ الاجتماعات القادمة، ستكون تحت اسم العلوم الإنسانيّة(١).

ويُلاحظ أنّ الولايات المتحدة الأميركيّة قد شجّعت في العصر الحديث الأعمال الاستشراقيّة، فرعت عام ١٩٤٧ الدراسات الاستشراقيّة في جامعة برنستون ـ أولى جامعاتها المهتمّة بالدراسات العربيّة والحضارات السامية القديمة ـ، وتبنّى المؤتمرون فيها طُرق الفن والآثار

---

(١) أنور الجندي: إطار إسلامي للفكر المعاصر، المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٠ ص١٧.

والأدب والعلم والدين، للنفاذ إلى أعماق ثقافة الشرق والتأثير فيها، واستطاعت مع الدول الاستعمارية الأخرى أنّ تضمن السيطرةَ على مقدّرات الأمم الضعيفة، وأنْ تحمي مصالحها عن طريق الانقسامات الداخليّة، وتعزيز الروح الإقليميّة والمفاهيم الانعزاليّة، وصنْع الكيانات المحليّة الهزيلة. وخاصة بعد أن تكالبت الدول الكبرى على الدولة العثمانيّة وأحيت العصبيّات الوطنيّة الضيّقة، وخلّفت نزعات عرقيّة وجنسيّة، بغية إيجاد الركائز الانفصاليّة ـ الوطنيّة والقوميّة ـ التي تميّزت ـ حسب المخطط المشبوه ـ بقيم مستقلة ومتغايرة.

فقد نجحت الماسونيّة العالميّة والقوى الدوليّة المتآمرة أن تُقيل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩، بسبب موقفه المبدئي، الذي عارض التفريط بأرض فلسطين العربيّة والإسلاميّة، وأنْ تقضي على دولته المسلمة، بعد أن ملأت الدنيا صراخاً عن الحريات الضائعة في الدولة العثمانيّة، وأفرطت في الثناء على الحركات السريّة والعلنيّة المتأوربة، وشجّعتْ مستشرقيها في دائرتها المذكورة أنْ يمدحوا شخصيّة مصطفى كمال وأنْ يُضفوا على انقلابه هالةً من الصفاء السياسي، وأنْ يقولوا عنه بعد إلغائه الخلافة الإسلاميّة، أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونيّة في كل أمة ناهضة؟ ومَنْ

يماثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقاً ولاحقاً[1]، وأنْ يباركوا فعلته، وأنْ يقوم أرنولد توينبي بتأليف كتاب «الخلافة» ليسوّغَ ما فعله أتاتورك، ويدافع عن أعماله، التي ادّعت أنّ الإسلام دين عبادة، وليس منهج حياة، ونظامَ مجتمع متكامل.

علاقة الاستشراق بالحروب الاستعمارية

أثبتتْ الدراسات الحديثة، أنّ الحروب الصليبيّة التي خاضتها دولُ أوروبة، في عصورها المظلمة، لم تكن في الواقع للسيطرة على مدينة القدس، وانتزاعها من المسلمين، بقدر ما كانت حرباً سياسيّة واستعماريّة، هدفها السيطرة السياسيّة والهيمنة الفكريّة والدينيّة والمصلحة الاقتصاديّة. وجاءتْ خطبة البابا أربان الثاني دليلًا قاطعاً، وبخاصة بعد أنْ حرّض فيها ملوك أوروبة، على غزو بلاد الشرق، والقضاء على أتباع محمد، وذبح أنصاره، الذين يفرضون سلطانهم، على بيت المقدس، أرض المسيح...[2] وكشفتْ كلمة اللورد اللنبي صدق

---

(١) إسماعيل الكيلاني: فصل الدين عن الدولة، المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٠ ص١٩٥.

(٢) نجيب الكيلاني: الإسلامية والقوى المضادة، مؤسسة الرسالة ١٩٨٠ ص١٣٤.

هذا التوجّه، بعد أنْ استولى على القدس، في الحرب العالميّة الأولى، عندما أعلن انتهاء الحروب الصليبيّة، وعدم انتهاء الحرب الاستعماريّة، التي أخذتْ طريقةً جديدة، عند رجال السياسة الأوروبيّة، الذين تداعوا لوضع خطة تلائم المرحلة الجديدة، وتكفل لهم إعادة السيطرة على الأراضي العربيّة والإسلاميّة.

وقد تبلورت الخطةُ الجديدة باستخدام حركات التبشير والاستشراق، بدلاً من الحروب المسلّحة، لغايات سياسيّة، ضاعفتْ من حقد الأوروبيّين وتعصّبهم. وكان المستشرق الإسباني ريمون رول، الذي تعلّم العربيّة، وجال في بلاد المسلمين، وناقش علماءها، أوّلَ مَنْ استخدم هذا السلاحَ الجديد، ونادى بإيجاد كرسي للدراسات الشرقيّة والإسلاميّة، في جامعات أوروبة، وذلك للأسباب الثلاثة التالية:

١ ـ إيجاد دراسات تاريخيّة ودينيّة، تشوّه الإسلام، وتحطّ من تعاليمه وقيمه.

٢ ـ إدخال مفاهيم الغرب العصريّة ـ العلميّة والماديّة ـ للطلاب الموفدين من البلاد الشرقيّة.

٣ ـ القضاء على قوّة العرب والمسلمين والسيطرة على الثروة الاقتصادية في بلادهم.

وهكذا تسلّل المستشرقون إلى بلاد العرب والإسلام، وأخذوا ينفثون سمومهم، ويحيكون مؤامراتهم، مستخدمين المدارس الرهبانيّة والمعاهد التبشيريّة، التي فشلت الدولة العثمانيّة، في إغلاقها، بسبب ضغط دولها الأوروبيّة[١]. وقد أساءوا في استخدام الروح الدينيّة السمحاء، كما أساءوا استعمالَ العلوم، عندما حوّلوها لمصالح دولهم السياسيّة، وجعلوا الغرب في مواجهة عسكريّة مع الشرق، الذي مدّهم بمختلف أنواع العلوم والمعارف الإنسانية.

من هنا نتقبّل بارتياح مفهوم الاستشراق، عندما يقوم على معرفة الأوروبيّين للغات الشرق، وأديانه السماويّة، ويطّلع على علومه وثقافاته المتنوّعة، انطلاقاً من حاجة الإنسان للتعاون مع أخيه الإنسان، للتغلّب على الصعاب، التي تعرقل تقدّمه وتطوّره. أما الذي لا نستسيغه ولا نقرّه، فهو تحوّل عملية التبادل المعرفي والثقافي، بين الأمم والشعوب، إلى منفعة سياسيّة، يراد منها التحكّم والسيطرة.

---

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩ ص١١٨.

وهـذا مـا حـدث مـثـلاً لأوروبـة، الـتـي اتـصـلـت بالشرق، إبّان الحروب الصليبيّة عبر بلاد الأندلس، وأخذت عنه علومه المتنوعة، بعد أنْ درس أبناؤها في مدارس الأندلس، وتعلموا في جامعاته، وخاصة في جامعة طليطلة، التي بقيت لغتُها العربيّة ـ الثقافيّة والفكريّة ـ قبلةَ طلاب العالم، لمدة طويلة، وظلّتْ فلسفتُها الإسلاميّة وبقيّة العلوم العربيّة تُدرّس في أوروبة لقرون عدّة، في حين كانت كتابات أرسطو لا تُفهم إلاّ بشروح ابن رشد، وكان طب ابن سينا أمثولةَ كلّ دارس وقدوة كل مجتهد. وكانت أوروبة آنذاك تعيشُ في ظلام قاتل، وفي جهل تام، عبّر عن هذه الحالة المستشرقُ الهولندي رينهرت دورزي ١٨٢٠ ـ ١٨٨٣ الذي اشتهر بدراساته المتنوّعة، عن تاريخ العرب الحضاري في إسبانيا بقوله: «إنه لم يكن في كلّ الأندلس أمّي، يوم لم يكن في كل أوروبة، منْ يعرف القراءةَ والكتابة، إلاّ في الطبقة العليا من القساوسة»[١]. وهذا ما أشار إليه روجيه جارودي في حديثه، على لسان أحد المؤرخين، عندما تساءل عن أسوأ يوم عرفته فرنسا، وأجاب بلا تردّد هو عام ٧٣٢م

---

(١) عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، مطبعة الرسالة، عابدين، القاهرة ١٩٦٤ جا ص٣٧٢.

تاريخ معركة بواتيه، حين تراجعت الحضارة العربيّة أمام البربريّة الإفرنجيّة[1].

يتبيّن من ذلك كله أنّ كثيراً من رجال الاستشراق أساءوا إلى اللغة العربيّة، وقذفوا تاريخها بأبشع النعوت، وأنّ معظم القضايا الهدّامة، والأخطار التي ابتليتْ بها المنطقةُ العربيّة والشرقيّة ـ الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة ـ هي بمعظمها من صنع هؤلاء المستشرقين. وهذا ما أوضحه مصطفى السباعي في حديثه الذي أشار فيه، إلى أنّ المستشرقين في جمهورهم لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً، وأنّ الاستشراق ينبعث من الدول الاستعماريّة[2]. وأنّ مؤامرة الغرب على البلاد العثمانيّة لم تهدأ، وبخاصة بعد أنْ أدخلَ السلطان العثماني محمود الثاني ١٧٨٤ ـ ١٨٣٩ إصلاحات الغرب إلى الدولة والجيش، واستعان بالمناهج الغربيّة والتنظيمات الإداريّة والعسكريّة، وأخذت القوى التغريبيّة التي تربّتْ في أحضان الغرب، وتبنّت تعاليمَه، ترفع

---

(١) أنور الجندي: الإسلام والحضارة، المكتبة العصرية، بيروت ص٢١٤.

(٢) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩ ص٥٧.

شعاراتِ الثورة الفرنسيّة، وأوْربة البلاد من جهة، وتتهجّم على المقدسات العربيّة والإسلاميّة من جهة أخرى، زاعمةً أنّ هذه المنطقة، ستبقى بعيدةً عن التقدّم، وغريبة عن روح العصر.

فقد عمل عدد من المستشرقين في تحوير مضامين الإسلام، وتشويه مبادئه السماويّة. فالمستشرق الإنكليزي هاملتون جب ١٨٩٥ ـ ١٩٧١، عضو المجمع اللغوي في مصر، وأحد كبار ناشري دائرة المعارف الإسلاميّة، يُعتبر من أبرز المستشرقين المتزمّتين، كان يعتقد أنّ اتحاد المسلمين هو بمثابة لعنة على العالم، وأنّ بقاءهم مشتّتين يجعلهم لا وزن لهم ولا يؤثّرون في عجلة السياسة الدوليّة. في حين حذّر المؤرخ والفيلسوف أرنولد توينبي من تأثير وحدة المسلمين على بلاد الغرب، وزعم لو أنّ محمداً ظلّ داعيةً ولم يُصبح رجلَ سياسة، لأصبح الإسلام من الناحية الروحيّة أسمى مما هو عليه[1]. علماً أنه تناقض مع أقواله في مجال آخر، حين اعترف بتسامح المسلمين مع الطوائف الأخرى، وبأنّ الإسلام أكثر الأديان اتفاقاً مع المنطق العلمي.

---

(١) صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق، دار الندوة الجديدة، بيروت، ط.أولى ١٩٩١ ص٣٤.

وهذا ما يفسّر موقف الدول الكبرى المتناقض أيضاً، فعلى حين ترفع في بلادها الشعاراتِ العلمانيّة والملحدة، نراها في الخارج تؤيّد الدعوة الدينيّة، وتشجّع المنادين بها. وأمريكا التي تعبد الذهب والبترول، غطّت المنطقة بمبشّرين، يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحيّة وسلام ديني[1]. وفرنسا التي كانت تعادي في بلادها الحركةَ الدينيّة، نجدها في الخارج تؤازرها. وإيطاليا التي ناصبتْ الكنيسةَ العداء، وحجزتْ البابا في الفاتيكان، بنتْ سياستَها على التوسّع والاحتلال.

وهكذا استطاعت المؤسسات الغربية ـ المحافل الماسونيّة مثلاً ـ أن تزرع الأفكار المشبوهة، وتغزو بعض العقليّات الشابة، فتخرج المسلمين باسم المعاصرة من ذاتيّتهم، وتتّهمهم باسم التحرر من عاداتهم القديمة وقيمهم الدينيّة، بنعوت الرجعية والجمود والتخلف.

أبعاد الاستشراق وأخطار قواه العالميّة:

إنّ معظم المعطيات التي بين أيدينا ـ من أدبيّة وتاريخيّة وسياسيّة ودينيّة ـ تُدين حركة الاستشراق وأهدافها المشبوهة، وتربطها بعجلة السياسة الغربية، التي

---

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار ص٣٤.

لم تتردّد يوماً عن استخدام مختلف الوسائل، للوصول إلى غاياتها الاستعمارية. ويمكن تلخيص أهداف أبعاد حركة الاستشراق بنقطتين بارزتيْن:

الأولى: التبعيّة للغرب، وخلق نوازع الاستسلام لقيمه المادية الحديثة ـ الخُلقية منها والاجتماعيّة ـ، وإظهاره بطروحه المبدئيّة الشكلية، ونظرياته العصريّة، كأنه شبكةُ خلاص الأجيال الناشئة من أوهامها القديمة، وأدران مفاهيم القرون الباليّة، التي ما زال الشرق العربي والإسلامي يخضع لها، من دون وعي ومعرفة.

الثانية: بث روح التخاذل الديني بين المسلمين، والتشكيك بالتاريخ العربي وقيمه الاجتماعيّة، وذلك بإيجاد نواقص مختلفة، وافتعال أحداث وهميّة، وتأويلات خياليّة.

هذه الروح الهدّامة، وعاها عمر فروخ جيداً، حين وصف حالة الاستشراق في بلادنا «بخلق تخاذل روحي في نفوس المسلمين، وحملهم على الرضى والخضوع للمدنيّة الغربيّة المادية»(١)، التي تنكرتْ من جهة لمقومات أمتنا العربيّة والإسلاميّة ـ التاريخيّة والحضاريّة ـ

(١) إسماعيل الكيلاني: فصل الدين عن الدولة ص٣٢.

في ماضيها الطويل والعريق، واستخفّتْ من جهة أخرى باللغة العربيّة الفصحى، وشجعتْ اللغات المحكيّة والعاميّة، بهدف تقطيع وحدة الشعب العربي. وهذا ما توخّته حركة الاستشراق من جراء تغريب العقليّة العربيّة، وترويج مناهجها التربويّة والتعليميّة، وإغراق المنطقة بفكرها المادي، لتمكين الاستعمار ـ الثقافي والسياسي ـ من أنْ يفرضَ طروحَه المختلفة، ويتدخّل في شؤون البلاد الداخليّة، ويجعل في المقابل معظم الدارسين كحركته الاستشراقيّة يؤكّدون أنّ عمل هؤلاء قد انطوى على نزعتيْن رئيستيْن:

الأولى: سيطرة الاستعمار الغربي، وتمكينه من توجيه السياسة، حسب مصالحه ومنفعته الخاصة.

الثانية: تشويه مواقف العرب والمسلمين، وغرس شبهات حول مقدساتهم، تحت غطاء البحث العلمي والغاية الإنسانيّة العامة.

تجلّتْ النزعةُ الأولى في إضعاف المفاهيم العربيّة، وتأويل النصوص الدينيّة، ووضْع شروح وتعليقات منافية للأعراف العربيّة والتعاليم الإسلاميّة، مما يقوّي فكرة الشكّ، ويوهن الرابطة القوميّة والدينيّة، ويؤدي إلى الانجرار وراء القيم الغربيّة.

فالمستشرق الفرنسي أرنست رينان ١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ يُصوّر عقيدة التوحيد في الإسلام بأنها عقيدةٌ تؤدي إلى حيرة المسلم[1]، وأنّ الديانةَ الإسلامية، بشريةُ المصدر ومشوبة بتأثيرات المذاهب السامية الدينيّة السابقة. والمستشرق اليهودي اجنتس جولدتسهير ١٨٥٠ ـ ١٩٢١ ادّعى استمداد الإسلام من اليهوديّة وتأثيرها فيه، وزعم في بحث ألقاه في المؤتمر الدولي للأديان، المنعقد في باريس عام ١٩٠٠، تأثير دين دولة الأكاسرة في الإسلام، ورأى أنّ الأحاديث النبويّة هي من صُنْع القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

أيّده من بعده المستشرق الإنكليزي نيكلسون ١٨٨٥ ـ ١٩٤٥ الذي أكّد بشرية القرآن، واعتبر أنّ محمداً تأثّر بتعاليم الديانات السابقة، وحرّف في نصوصها، وجعل فقرات القرآن ـ على حد قوله ـ مضطربةً، لا تعوز قارئ القرآن الأوروبي، من الدهشة في عدم تماسك صاحبه في معالجة كبار المعضلات، ومجّد في مكان آخر فكرة التصوّف الإسلامي في الحب الإلهي، ظناً منه أنه يصرفهم عن الجهاد في سبيل الله،

(١) محمد البهي: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧٥ ص٤٩.

ومنتقداً في الوقت ذاته فكرةَ الإله، الذي يبسط رحمتَه على منْ يتّق غضبه بالتوبة والخضوع، ومؤكداً أنه إلهُ خوف أكثر منه إله حب[1].

لقد أظهرتْ دراسات معظم المستشرقين نواقص المجتمع العربي والإسلامي، وأغفلت جوانبَ القوة والعظمة فيه، وتكلّفوا في خلق قصص، ونشر أخبار، لإظهار عقم الفكر العربي والإسلامي، وجمود مذاهبه، التي لم تعد تتماشى ـ حسب رأيهم ـ مع عصريّة القرن العشرين وحضارته الحديثة.

والمؤسف أنّ بداية اليقظة العربيّة الحديثة لم تكنْ مشجّعةً، لأنّ كثيراً من كتّابنا قد تأثّروا بحركة الاستشراق، واتخذوا من نظرياتهم طروحاً علميّة، وقواعد ثابتة. لكنّ خمسينيات القرن الحالي أفرزت تصوراً مغايراً، ونضجاً علميّاً ملحوظاً، من خلال تصدّي بعضهم للأفكار الاستشراقيّة، حيث راحوا ينبّهون إلى خطورة أعمالها، وفداحة المكائد والمؤامرات، التي تلحقها بالأمم الشرقية الناهضة. ولم يكتفوا بردودهم التي تدمغُ الفكر الغربي بالتعصّب

---

(١) المصدر نفسه ص١٩٤.

والكراهية، بل عادوا إلى تراثهم يستلهمون منه الحقائق الثابتة، ويكشفون زيف ادعاءات المستشرقين، وافتراءاتهم المتناقضة.

فعلى حين زعم بعض المستشرقين أنّ كتاب الله وشريعته حصيلةُ ثقافةِ محمد العالية ـ وهو الأمّي غير المتعلم ـ نراهم في مكان آخر، ينقضون أقوالهم، ويدّعون أنّه استقاها من تجاربه، ومن اليهود والنصارى، أو من فلسفات اليونان وشرائع الرومان، أو من وضْع الراهب بحيرى الذي صاغ الإنجيل، وأضاف إليه تشريعات تتوافق والزمن، ويظهرون في المقابل أنّ الشريعة لا تصلح لحكم البشر في العصر الحاضر، متناسين تعاليمها التي تحثّ من جهة على التعاون الاجتماعي، ومن جهة أخرى على المساواة والحريّة والعدالة، التي لم تعرفها القوانين الوضعية، إلاّ بعد الثورة الفرنسيّة.

يتبيّن من ذلك أنّ هدف المستشرقين ليس إظهار الحقائق، وجلاء الأمور، وكشف غوامضها، لأنّ ديدنهم هو التشكيك والتقليل من قيمة الفقه الإسلامي وتشريعه، والافتراء على الحضارة العربيّة، وانتقاد لغتها الفصحى، واعتبارها غير قادرة على مواكبة لغة العصر.

كتّاب النهضة العربيّة وحركة الاستشراق

واجه كتّاب النهضة العربيّة الحديثة مزاعم المستشرقين، وأكدوا خطل مفاهيمها، وتصدى كثير من علماء النهضة ومفكريها لدراسات الاستشراق المغرضة، وعارضوا تصوراتها، ونقضوا أراجيفها، وكشفوا أخطار حركاتها ـ السريّة والعلنيّة ـ التي تعمل مع الاستعمار، وتتآمر على حريّة الشعوب الناهضة، واستقلالها الوطني، تحت أقنعة وهميّة، وبأسماء مضلّلة.

عارض أعلام النهضة ادّعاءات المستشرقين بالحجّة العلميّة والمقدرة العقليّة، وأبرزوا اعتراضاتهم في موضوعاتهم الكثيرة والمتنوّعة، التي جاءت في ردودهم على منْ اتّهم القانون الإسلامي بالقدميّة والرجعيّة من جهة، وبالهمجيّة والوحشيّة من جهة أخرى، لوجود نصوص في قانون العقوبات الإسلامي، تدعو إلى قطع يد السارق، ورجم الزاني والزانيّة... وأوضحوا أنّ القانون الإسلامي يختلف في طبيعته وجوهره عن بقيّة القوانين الوضعيّة، لأنه ليس من صنع فرد أو طبقة، ليأتي منسجماً مع مصالح هذا الفرد أو الطبقة، وإنما هو من صنع الله وشرعه، الذي سوّى بين جميع الناس، وبيّنوا أنّ هذا القانون نفسه في ظلّ الدولة العربيّة الإسلاميّة،

استظلّ بسلطته نصف العالم، طيلة اثني عشر قرناً، وأثبت صلاحه لكل زمان ومكان، وأن العقوبة في قانون العالم هي أرحم من قانون المجتمع الحديث، وأفانين عذاباته، التي عُرفت في إبادة الجسم ونسفه بالأسلكة الكهربائية، أو رميه بالقنابل المحرقة والمدمرة.

افترى كثير من المستشرقين على الإسلام والعروبة، وأثاروا قضايا استحوذت اهتمام روّاد الفكر العربي والإسلامي. فعلى سبيل المثال عندما يتحدثون عن الكرد والعرب، يُبرزون فوارق الشعبين، في الجنس والعقيدة والأهداف والعادات، بُغية خلق هوّة جغرافيّة وثقافيّة، تمزّق وحدة هذه الشعوب، وتجعل الإسلام ديانات متعدّدة، وليس واحداً، كإسلام الهند، وإسلام مصر، وإسلام تركيا. وعندما يدرسون موضوع القضاء والقدر، يشوّهون مفهومه، ويُشكلونه بأفكارالتخاذل والتواكل والاستسلام، وبخاصة في قضيّة الجبر والاختيار، ويعتبرون أنّه يشل قوى الإنسان، ويحمله على الاستسلام والرضا بما يقع منه وعليه[١]، متغاضين عن حقيقة المراد من قضاء الله وقدره، ومن حكمته في أنْ جعل الأمورَ

---

(١) محمد عزة دروزة: القرآن والملحدون، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٣ ص٢٦٤.

تسير مطابقةً لإرادته وترتيبه. وعندما يتحدثون عن نظريّة فصل الدين عن الدولة، يعتبرون أنّ الدين علاقةٌ فرديّة بين الشخص والخالق، وأنّ الإسلام دينٌ لا دولة، ويزعمون أنَّ الأئمة المسلمين لم يَعطوا أبحاثاً في أنظمة الحكم وأشكاله السياسيّة، متجاهلين المصادر العديدة المختصّة، التي بحثت في أسس الحكم، والشروط السياسيّة المطلوبة لبناء دولة عادلة.

وقد انتقد محمد عبده، وغيرُه من أعلام النهضة نظريّة المستشرقين هذه، وأكد تضمين القرآن لكثير من الآيات التي تدعو إلى السلطة السياسيّة والقضائيّة والعدليّة، وبيّن أنّ أحد أصول الإسلام الأساسيّة، الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة. ودحض جمال الدين الأفغاني ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ مزاعم أرنست رينان حول الإسلام والعلم، وبيّن الآيات والأحاديثَ الكثيرة التي تحضّ على طلب العلم، وتدعو إلى المعرفة، وكشف الحقد العنصري والديني عند رينان، وأعلن أنّ العرب أخذت عن اليونان والفرس علومهم، لكنّها استطاعت أنْ تصقلها، وتُضيف إليها من معارفها وسلامة ذوقها، ما جعلها تجسّد هويتَها وخاصيتها الذاتيّة، في الوقت الذي كانت فيه بقيّة الشعوب الغربيّة، القريبة من أماكن هذه

الحضارة، تغطّ في سباتها، ولم تفعل شيئاً[1].

لكنْ يجب أنْ لا تعمينا كتابات بعض المستشرقين المشبوهة، عن رؤية الإيجابيات المعرفيّة والحضاريّة، لمستشرقين بحثوا عن المعرفة، وجهدوا في أنْ تصبح هذه المعرفة ملكاً للبشريّة كافة. ونعتقد إنّ الدورَ المطلوب حالياً من رجال الاستشراق، بعد أنْ أصبحت عمليةُ التعارف بين الشرق والغرب ممكنةً وسهلة، هو دورٌ يقوم على دراسة العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، والأخذ بمنجزات العصر الحديث ومكتشفاته، والانفتاح بإخلاص وموضوعيّة، على منجزات الشرق العربي وحضارته الإسلاميّة العريقة.

---

(١) جمال الدين الأفغاني: الكتابات السياسية الجزء الثاني، المؤسسة العربية، بيروت ١٩٨١ ص٣٢٣.

الفصل الثاني
اللغة العربية في ملفّ المستشرقين

تناولتْ كتاباتُ الاستشراق في القرون الوسطى القضايا الدينيّة والتعاليم الإسلاميّة، وأفاضتْ دراساته في الكلام على موضوعات النبوّة والخلافة والقرآن الكريم، وتحمّس العديد من مفكّري العرب وأدبائهم للردّ على افتراءات أصحابه، وترّهات أقوالهم، بيْد أنّ ما قاله جيلهم في السنوات الأخيرة في القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، كان مخيفاً ومؤذياً، ليس فقط من جرّاء تعرّضهم للمعتقدات الفكريّة والدينيّة، بل لتشويههم الإنسان العربي كذات بشريّة، امتازت بمواصفات عدّة، ومقوّمات معيّنة، أهّلتها أنْ تتبوأ صدارة الركب الحضاري المتقدم، وأنْ تُبقي في المناطق التي عرفتها إرثاً عظيماً، في القيم الاجتماعيّة والمفاهيم الأدبيّة، وفي النهضة العمرانيّة والمظاهر الحضاريّة.

أغمض الاستشراق عينيْه عن هذه الحقائق،

وانحرف عن الجادة الموضوعيّة والبحث العلمي الأكاديمي، وتوجّه إلى دراسة التراث العربي اللغوي والعلمي، الأدبي والفلسفي، واتخذه وسيلةً دوغماتيّة لتحقيق نزعته الفوقيّة، وفرْض سلطته العنصريّة، خاصة عندما ادّعى أنّ الفلسفة العربيّة هي فلسفة يونانيّة مكتوبة بحروف عربيّة[1]، وأنّ العربَ مفطورون على البساطة في اللغة والتفكير، وأنّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة لم تؤثّر في نهضة أوروبا، وتطور علومها، وتقدّم مجتمعاتها، وأنّ النهضة الأوروبيّة الحديثة هي من صُنْع الغربي وحده، وأنّ الحضارة العربيّة هي مجرّد صورة للعلوم اليونانيّة والقوانين الرومانية، لأنّ طبيعة العربي وتربيتَه الاجتماعيَّة تصلح للرعي والزراعة، وتنفرُ من المكتسبات الفكريّة، وليس لها فضل في ثقافة، وأنّ عقلَه جامد، لا يكترث للشؤون الحياتيّة، والحقوق الإنسانيّة، ولا يهتمّ إلاّ بالأمور التجاريّة والأعمال الصناعيّة، متجاهلاً المراحل التاريخيّة المؤثرة التي لعبت فيها العقليّة العربيّة أدواراً فعّالة، وكانت معالمها البارزة مناراتٍ مضيئةً، في بناء حريّة

---

(١) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: التبشير والاستشراق، أحقاد وحملات، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩١ ص١٠٩.

الإنسان وعدالة مجتمعة[1]. وبات من الضرورة التصدّي إلى ما زرعه بعض المستشرقين من ثقافة عنصريّة، حرّفت الفكر العربي، وأساءت إلى حضارة التراث الأدبيّة والعلميّة، وعملتْ على إشاعة النظرة الاستعلائيّة، التي ما زالت مستمرةً حتى الآن في كثير من دول الغرب، لأنها محكومةٌ بقيود المنهج الأوروبي، ومنطلقاته المغلوطة لوقائع الأحداث، وقضاياها الاجتماعيّة والدينيّة.

إذا كانت الصفة الاستعماريّة هي سمة المرحلة، فإنّ قواها الضاغطةَ في أنشطة الفكر والثقافة، أدركتْ أهميّة تقطيع أوصال العرب، وتمزيق وحدتهم، وأيقنتْ استحالةَ تحقيق هذه الغاية، ما دام الرابط اللغوي يجمع بين أبناء الضاد، وما بقيتْ اللغةُ العربيّة واحدةً، وحرفُها الموحّد يصل بلادَهم بتراثها الماضي، يشدّ أواصرها، ويوثق عضدَها، ويُضفى عليها هالةً من القوة والتجدد. ولهذا تنوّعت افتراءات الاستشراق اللغويّة، وتفتّقت خططُ أصحابه عن تشجيع كل عربي الكتابة باللغة العاميّة، وإحلال الحروف اللاتينيّة محل العربيّة، بُغْية هدم اللغة العربيّة ـ الجامعة ـ، وضرْب وحدتها القوميّة، وتفكيك

---

(١) حسين العراوي: المستشرقون والإسلام، مطبعة المنار، القاهرة ١٩٣٦ ص١٦.

روابطها الثقافيّة والتاريخيّة. وخصوصاً عندما ادعى بعضهم من المتعاونين مع المخابرات العسكرية، أنّ العربيّة الفصحى لغةٌ قديمة وميّتة، ولم تعدّ تصلح لتطور المجتمع، ومواكبة العصر، وأنّ اللغات العاميّة الدارجة، هي أفضل حالاً، وأنفع شأناً، وأكثر التصاقاً في معايشة الواقع، وأشدّ التزاماً بوحدة أبنائه، وأجدى تجانساً على الأصعدة كافة.

أوجدتْ هذه الطروحُ الاستشراقيةُ اتجاهاتٍ مختلفةً، عملت كلُّها على ترسيخ اللهجات المحليّة واعتبارها اللغةَ الأساسيّة ـ الأم ـ التي لا صلة لها بلغة العرب القوميّة، ولا علاقة لها بالحضارة العربية الإسلاميّة، التي قضتْ على العصبيّات الإقليميّة والعصبيّة الضيّقة، وتغلّبتْ على العقليّات الانفصاليّة، وأرستْ على مجتمعها الموحّد عناصر الألفة والمحبّة.

ادّعتْ بعض الدراسات الاستشراقيّة أنّ حضارة البلاد العربيّة أشوريّةٌ وفرعونيّةٌ وفينقيّةٌ، وزعم بعض المستشرقين أنّ اللغة العربيّة ليستْ لغةَ علم وفن، لأنّها لغةُ طلاسم وأساطير، مرّتْ عليها حقبُ الدهر الطويلة، وقضى عليها الزمنُ، وجعلها أمثولةً للذكريات والأقاصيص النادرة[١].

---

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ص١٢٢.

وأنّها ليستْ مؤهلةً للعب دورها الريادي، الطبيعي والقيادي، في حياة الأمة ومجتمعاتها المتمدّنة.

لقد أدرك الاستشراق مكانة اللغات في حياة الشعوب وتقدّمها، وأجمع أصحابه على أهميتها في تقدّم البلاد والأوطان، وعرفوا أبعاد آثارها في مسيرة البشر الحضاريّة، كونها معياراً أساسياً في تحديد الذات والهويّة الوطنيّة والقوميّة، وأداة تفاهم، واكتساب معرفة، وانتماءَ فكر، وبتعبير أدق فإنّ منزلة اللغة هي بمثابة شريان الأمة، وأقنوم حضارتها، وقبلة فخر ولائها. ولو أضاعتْ أمةٌ لسانَها، لفقدتْ طبعاً تاريخَ وجودها وتراثَ حضارتها[1]. لأنّ لسانَ الأمة هو جزءٌ من عقليتها، ومستودع أفكارها، وقلّما تعرضتْ أمّةٌ إلى مثل ما تعرضتْ إليه اللغةُ العربيّة، التي عدّها كبارُ الإعلام من أقوى عوامل التجانس والوحدة، والتي جعلت الناطقين بها كتلةً بشريّةً متماسكةً، وقوةً متراصة، لها قواعدُها وأصولها، وأصبحتْ رابطةً وحّدت رغبات أفرادها، وبلورت مطامحَ أبنائها، وزرعت أوّل بَذرة قوميّة. وقد أشار الرسول محمد ﷺ إلى منزلة اللغة القوميّة بقوله:

---

(١) د. منذر معاليقي: معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار اقرأ، بيروت ١٩٨٦ ص٢٧٧.

«أيّها الناس إنّ الرب واحد، والأب واحد، وليست العربيّة بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان. فمنْ يتكلّم بالعربيّة فهو عربي»[1]. وجاءعنه ﷺ: «إنّ أوّل مَن كتب بالعربيّة هو إسماعيل»، وإنّ كتابَ الله هو أصدق قولٍ في تصوير مكانة اللغة العربيّة، حيث نزل بلسان عربي على أمّة فصيحة وبليغة.

ويُلاحظ أنّ الأمّة عرفتْ عبر مختلف مراحل التاريخ، ضرباتٍ قاسيةً من المغرضين، وهجماتٍ مؤلمةً من المستكبرين والمتربّصين، وكانت اللغة أحد الأهداف التي وُضعَتْ في استراتيجيّات الشعوبيّين، القدامى والجُدد، الذين تطاولوا عليها، وحاولوا تفريغها من محتواها. فعلى سبيل المثال لعبَ الرامكة دوراً هاماً في إعادة مجد فارس، وشجّعوا كتّاباً نالوا من الحضارة العربيّة، وأفاضوا في ذكر مثالب العرب، وكانت حركةُ التنصير في الحروب الصليبيّة، ثم موجةُ التتريك العثمانيّة، التي تقمّصتْ وجهاً إسلامياً، وارتدتْ لباساً دينيّاً، والتي هَزَمتْ دولتها، وأسقطتْ خلافتَها، عقب الحرب العالمية الأولى، حيث شهدت المنطقةُ عمليةً

---

(١) محمد عمارة: الإسلام والوحدة القومية، المؤسسة العربية، بيروت ١٩٧٩ ص٦٠.

استعماريّة حديثة، تمثّلتْ في الهجوم المنظّم على اللغة العربيّة، وتبلورت عند أعداء العروبة من المستشرقين، الذين وجدوا في تغذية اللهجات العامية أنجح الوسائل والأساليب لإحداث الخلل اللغوي ـ الاجتماعي والسياسي ـ والاهتزاز في بنيان الأمّة، والقضاء على العربيّة الفصحى، والذين استفادتْ منهم دولُهم في تأسيس المدارس والمعاهد الخاصة، التي اهتمّت بتدريس اللهجات العاميّة، وترسيخ اللغات المحليّة، واستغلالها في أعمالها العدائيّة والجاسوسيّة. فبريطانيا أنشأت في جامعة لندن فرعاً لتدريس العربيّة العاميّة، التي أتقن لهجةَ قبائلها العربيّة لورانس العرب ـ خريج هذه المدرسة الاستشراقيّة ـ، وحظيتْ أقطارُ الشمال الإفريقي وسورية ولبنان ومصر وفلسطين والعراق بكثرة مدارس الوافدين المستشرقين إليها، وصدرت كتاباتهم اللهجيّة في كتب المعاجم وكتب تعليم اللغة ونصوصها، بعد أن سجّل الاستشراق نماذج للهجات الحديثة، عن أحوال أمم الشرق وتراثها، في مناطق مختلفة من الوطن العربي. وجاءتْ هذه الدراسات في أنماط مختلفة، وكان أطلسٌ لغويٌ ظهر عن لهجات الوطن العربي، هو أطلس لهجات سورية ولبنان عام ١٩١٥ للمستشرق براغستراسر. ويعدّ المستشرق فالين من أوائل الروّاد الذين درسوا لهجات الجزيرة العربيّة، وكان

باكورة هذا النتاج هو كتاب «قواعد العربيّة في مصر» عام ١٨٨٠ للمستشرق الألماني ولهلم سبيتا، الذي عمل في مصر مديراً لدار الكتب المصريّة، في أواخر القرن الماضي، والذي عاش في حيّ شعبي من مصر، يستقي اللغة العاميّة من منابعها الأصليّة، ويدوّن على قميصه ما يسمعه بأذنه، خوفاً من أنْ يلاحظه أحد المتكلمين[١].

وقد أكّد في عمله الشبيه بأسلوب المخابرات الجاسوسيّة، الاختلافَ الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة، وأشار إلى أنّ اللغة الفصحى، لا ينمو معها أدب حقيقي متطوّر، وأنها عبءٌ خطير على الرجل العادي، الذي إذا احتاج إلى كتابة خطاب أو وثيقة، فعليه أنْ يضع نفسه تحت يدي كاتبٍ محترف، ولذلك فإنّه يقترح رأياً علمياً ـ على حد قوله ـ يقوم على بقاء العربيّة الفحصى وحصرها في لغة الصلاة والطقوس الدينيّة[٢]. وكانت مثل هذه المقترحات أسافين موقوتة، ضمن مخطط عام ولبرنامج متكامل، يجهر بدعوات انعزاليّة ضيّقة، أرسى جذورها فكرٌ استعماري، أمدّها بمختلف

---

(١) رجاء النقاش: الانعزاليون في مصر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط١ ١٩٨١ ص١٩٤.

(٢) صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص٦٦.

الإمكانيّات، وساعدها على التوسع والانتشار، بهدف ضرب وحدة الأمة، وتهميش ثقافتها القوميّة، وبُغية تحويل اللهجات العاميّة إلى لغات مستقلّة، قائمة بذاتها، ومنفصلة عن اللغة العربيّة.

بَيْد أنّ المستشرق الإنكليزي وليم ويلكوس شنّ حرباً شعواء على اللغة العربيّة، وقام بحملة تشكيك واسعة في مفاعيل فحواها، واعتبر أسباب تخلّف المصريّين يعود إلى اللغة العربيّة الفصحى، وقال إنّ اللغة المصرية لا علاقة لها باللغة العربيّة، التي وصفها باللغة المصطنعة، يستعملها المصريُ كلغة أجنبية، تقف عقبةً في سبيل تقدّم المصريّين، وتحول بين المصريّين وعناصر الإبداع والابتكار، وأشار إلى أنّ درسها مضْيعَةٌ للوقت، وموتها محقّقٌ كما ماتتْ اللاتينيّة، وزعم أنّ الخلاص منها يُتيح لمصر وأبنائها أنْ يأخذوا مكانهم بين أمم العالم المتمدّنة[١].

الاستشراق ومعاول الهدم اللغويّة:

استمرّت حملة المستشرقين على تاريخ العرب

---

(١) نفوسة زكريا: الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤ ص٩٤.

والإسلام، عبْر حملات ثقافيّة ودينيّة مُغرضة، ركّز المستشرقون على ما يُعرف في العصور الحديثة بتطوير شؤونِ اللغة، وتبسيطِ أمور نحوها، وقواعد صرفها، وإعادة النظر في أحرفها الكتابيّة. ووضعوا صيغةً ومناهجَ تتلاءم مع حاجة العصر، وتتوافق مع متطلّبات الحياة العمليّة، التي تُؤثر ـ حسب ادعاءاتهم ـ أهميّة تقريب لغة الكلام العاميّة على لغة الكتابة الفصحى، والتي تفرض على أبناء الجيل الجديد، ضرورة الانتماء إلى لغة جديدة وثقافة أخرى، تُساهم في تشويه العربيّة، وتسعى إلى خلق فجوات فكرية بين أبنائها، تمزيقاً للهويّة القوميّة، ونيْلاً من العروبة التاريخيّة[١].

وقد لعب الاستعمار دوراً ناشطاً في إضعاف الفصحى وتنشيطِ العاميّة، وتحرّكَ كثيرٌ من مستشرقيه صوْبَ اللغة، ووجّهوا إليها سهامَهم المسمومَة، فنادوا تارة بتهذيبها من أدران الماضي، وتارة طالبوا بالإصلاح الثقافي، وعمليّة التغيير والتجديد، في شكل القواعد ومضمونه، وأسرف بعضهم ونادى بإحلال العاميّة واللاتينيّة، وظهرتْ محاولاتٌ لتدريس اللهجات العاميّة

---

(١) أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدامة ومعاصرة، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة ص١٢٠.

في تعليم اللغة العربيّة، في مدارسَ أُنشئَتْ في نابولي عام ١٧٢٧، وفي لندن أوائل التاسع عشر، وفي فرنسا دُرِّست اللهجات العربيّة العامّة في مدرسة باريس للغات الحيّة، التي أُنشئت عام ١٧٥٩، وفي موسكو دُرّست العربيّة ولهجاتها العاميّة عام ١٩٠٩، وفي بريطانيا أَنْشَأَت جامعة لندن في أوائل القرن التاسع عشر، فرعاً فيها لتدريس العربيّة الفصحى والعاميّة. وكان لورانس الجاسوس البريطاني في المنطقة العربيّة، الذي أتقن لهجات القبائل العربيّة، خريج هذه المدرسة[1].

استعمل الاستشراق ودوائر استخباراته الأجنبيّة شتى وسائل التخريب والتدمير اللغوي، سواء بإشاعة اللهجات العاميّة ـ المحليّة والقبليّة ـ أو بإظهار الفصحى لغةً متخلفة، تعجز عن مواكبة العصر، ولا تستطيع مجتمعاتها أنْ تحتفظ بلغتها، التي زاد عمرها على خمسة عشر قرناً من الزمان. وعملوا على تكريس العاميّة في مناهج التعليم، وأَعَدّت بعض جامعات إسرائيل مسابقةً أدبيةً للمواطنين العرب، اشترطت فيها أنْ تكونَ الأعمالُ الأدبيّة مكتوبةً باللهجة العاميّة الفلسطينيّة، لتُشجِّع فُرصَ

(١) صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص٥٩.

انسلاخ اللهجات المحكيّة عن اللغة العربيّة الأم، تمزيقاً لوحدة البلاد العربيّة، وتحقيقاً لإنشاء قوميّاتٍ مختلفة، لأنّ مثلَ هذه المؤسّسات الثقافيّة تدرك مكانةَ اللغة في توحيد الأمّة، وتفهم عملَ اليهود في إعادة الحياة إلى لغتهم القديمة ـ الميّتة والمحنّطة ـ منذ ألفي سنة، عندما أرادوا جمعَ شملهم المتفرّق في جميع أنحاء العالم، وأنها تعي مواقف كرومر اللغوية، الذي نبذ العربيّة الفصحى، واستعاض عنها بالعاميّة، وطالب باستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني، والذي أوضح في أكثر من مناسبة، أنّ القرآن الكريم هو العقبةُ الكؤود في سبيل ارتقاء مصر والأمّة الإسلاميّة[1].

وقد ناصرَ دعوةَ كرومر مستشرقون ساروا في ركبه، وأخذوا بتعاليمه، ودعوا إلى فصْل مصر عن الأمّة العربيّة ـ لغةً وثقافةً ـ وإلى ضرورة ربطها بتبعيّةٍ تامة للغرب، من خلال اتخاذ اللهجة العاميّة لغةً أدبيّةً، ترمي إلى تدمير تطلّعات العرب في الوحدة والتحرر، وتَبْغي قطع جذور الثقافة الواحدة، وتكريس لغات التفتّت، وتجريد الفكر وثقافته الإنسانيّة من العقيدة الدينيّة والروح

(١) أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدامة ومعاصرة ص١٠١.

الإيمانيّة. ورأى بعض المغالين من المستشرقين أنّه إذا لم تُتَّخذ طريقةٌ جديدة للكتابة، وتُستعمل الحروفُ اللاتينيّة بالعاميّة، فإنّ لغة الحديث والأدب سينقرضان، وستحلّ محلّهما لغةٌ أجنبيّة، أهّلتها علاقاتُ العرب بالأمم الأوروبيّة وحتّمتها زيادة عمليات الاتصال، وتبادل المصالح المشتركة، وحمّل بعضهم الفصحى مسؤولية التخلّف والجحود والتحجّر والعقم، وذهبوا إلى أنّ اللغة هي أداةُ شكل لا أكثر، وأشاروا إلى أنّ المحتوى هو الأهم، في حين أنّ اللغة هي الاثنين معاً ـ الشكل والفحوى ـ بل هي قالبٌ تصاغ فيه أفكارُ الأمة وأحاسيسها، التي تعبّر بها عن كنه وجودها وخصوصية أوضاعها.

وهنا لا بدّ من لفت الانتباه إلى أنّ دراسةَ لهجات الأمّة ليستْ مرفوضةً ولا ممقوتة، بل هي ضروريةٌ وعملٌ مشكورٌ، شرط أنْ يصبّ هذا الجهدُ في مصلحة اللّغة الفصحى، وأنّ ما يُبذل من دراسات بحثيّة، يجب أنْ يُوظّد في الغيرة على النهوض بالفصحى، والتقدّم بها مع مسيرة المجتمع العمرانيّة، وأنّ التوجّهات الحديثة الجادة في تشويهها والتشنيع عليها، يجب التنكّر لها، ومقاومتها بالمنطق العلمي، والمصلحة الوطنيّة المشتركة، لأنّ

الفصحى كما هو معروف عند العرب أرقى من اللهجات العاميّة، وأعذبُ نغماً وارتقاءً، ويدلّ اتقانُها عندهم على الثقافة العالية، والذوق الرفيع، وقد صدق طه حسين في ردّه على جهل فريق من الشعراء بالفصحى، عندما أعاده إلى الكسل والتقصير[1].

الأدب العربي بين الفصحى والعاميّة:

امتازتْ اللغةُ العربيّة الفصحى عن غيرها بأنّها لغةُ رسالة وعقيدة، ومثّلتْ نموذجاً مُميّزاً في علاقتها بالأمّة، لأنّها لغةُ القرآن الكريم ودستورُ الحياة، ومنهجُ العالم، بالإضافة إلى أنها مقومٌ هامٌ من مقوّمات شخصيّة الأمّة وهويتها القوميّة، ويتطلّب سموُّ فكرها الشامخ تلازماً وانصهاراً بين الفكر واللغة، وتناقضاً مع اللغة العاميّة المبتذلة، انطلاقاً من المقولة المعروفة أنّ الفكر الجيّد والأنيق يحتاج إلى تعبير لغوي شيّق ورفيع، وأنّ الإنسانَ الذي يتهاون في أداته التعبيريّة، يتنازلُ عن جوهر وجوده وديمومة حياته، ولأنّ وحدة اللغة في ميادين الكتابة والثقافة، يكون أثرها بليغاً في توثيق روابط الجماعات،

---

(١) مازن المبارك: اللغة العربية في التعليم والبحث العلمي، دار النفائس، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢ ١٩٨١ ص٣٤.

وصهرها في بوتقةٍ واحدة، تُؤدّي لا محالة، إلى وحدة في اتّجاهات التفكير والوجدان وسائر مظاهر الشعور الإنساني.

يُقال إنّ فرانسوا ميتران - رئيس جمهورية فرنسا - في زيارة له لمصر، تباحثَ مع المسؤولين في كلّ ما يهمّ البلديْن، لكنّ الشيء الأهم الذي توقّف عنده، هو حاضرُ اللغة الفرنسيّة ومستقبلها في مصر، ورجا أنْ تعودَ اللغةُ الفرنسية اللغةَ الأجنبيّة الثانية في المدارس الثانويّة المصرية، وإنّ أندريه مالرو الأديب الفرنسي ووزير الثقافة الأسبق كان يقول: «إنني أكثرُ الوزراء مسؤوليّةً، فأنا مسؤول عن أهم مصالح فرنسا خارج حدودها وعن صادرات فرنسا الأولى: اللغة الفرنسيّة والثقافة الفرنسيّة والكتاب الفرنسي...»[1].

ويُلاحظ أنّ العربيّة الفصحى دخلت البلدان التي فتحها العرب، وتمكنت في فترة قليلة من إزالة الفارسيّة والسريانيّة واليونانيّة والفينيقيّة والبربريّة واللاتينيّة، واكتساح معاقلها، وأصبحتْ لغةَ الدين

---

(١) مجلة المجلة: بقلم حسين مؤنس: حرب اللغات، العدد ١٥٨، ١٩ - ٢٥ شباط ١٩٨٣ ص٦٣.

والثقافة والعلم والكتابة. وتغيّر الموقف بعد استشراء الاستعمار الأوروبي، وإيقاف الدول الغربيّة نموَ العربيّة، وإبدالَها بنفوذ لغاتها ولهجات أهلها، بعد أنْ أثارت الشبهات حول مكانة اللغة العربيّة، وقدرتها على استيعاب مصطلحات الحضارة، ودعتْ إلى العاميّة، والتحلّل من أسلوب البيان العربي، والتخفّف من كتابته البلاغيّة.

هذا العمل المبرمج هو جزء من مخطّط معاول الهدم، الذي طال الشعر والسينما والمسرح وغيره من الوسائل الإعلاميّة والإذاعيّة، والذي اشترك في عمله غربيّون وعرب، ساهموا جميعاً في ضَرْب العربيّة وإلحاق الأذى بقوّتها وصلابتها. ففي الجزائر مثلاً أصدر الحكم الفرنسي عام ١٩٣٣ قراراً نصّ على أنّ اللّغة العربيّة لغةٌ أجنبيةٌ عن الجزائر، وأوْلَى اللغةَ البربريّةَ عنايةً كبرى. وفي مصر حيث بدأت الحربُ اللغويّة، تمثّلت ضرباتُ المستشرقين في الدعوة إلى العاميّة وإلغاء الدراسات النحويّة، ومن ثَمّ تركزت في لبنان ودعتْ إلى وجود لغة لبنانيّة محليّة، استمدّتْ عناصرَها اللغويّة من الفينيقيّة والآراميّة والسريانيّة على يد سعيد عقل ويوسف الخال، الذي دعا إلى التحرر من قيْد النظم، وإلى وثبة جديدة في الحداثة، واعتبر أنّه من غير المنطق كتابة شعر

حديث في لغة كلاسيكيّة قديمة، وقال إنّ جدار اللغة يجب أنْ يحطّمَه الشاعر[1].

وكان بعض أبناء العربية ممّنْ تتلمذوا في مؤسسات الاستشراق التعليميّة والتربويّة، أخطرَ في دعواهم من المستشرقين الأجانب أنفسهم، وصاروا حماةَ الدعوة العاميّة الانعزاليّة، وساهمتْ أسماؤهم البارزةُ في سماء مصر ولبنان وسورية في خلخلة الوعي الوطني والقومي. نذكر منهم على سبيل المثال طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر، ولويس عوض في ديوان شعره المكتوب بالعامية، ومحمد حسين هيكل في كتابه ثورة الأدب وغيرهم من أمثال توفيق الحكيم ولطفي السيد واليهودي يعقوب صنوع، وسعيد عقل الذي لعب دوراً كبيراً في تشويه العربيّة، وبخاصة عندما أنشأ مطبعةً لكتابة اللغة العربيّة بالحروف اللاتينيّة، وطبعَ مجموعة من كتبه ودواوينه، وأنيس فريحة أحد أساتذة التاريخ واللّغات السامية في الجامعة الأميركية في بيروت، الذي وضع كتاباً باسم «تبسيط قواعد العربية» وتبويبها على أساس منطقي جديد.

---

(١) أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدامة معاصرة ص١٢٠.

بَيْد أنّ معظم كتّاب العربيّة عارض الدعوة إلى الأدب العامّي، ورفَضَها كثيرٌ من النقاد واللغويّين، الذين أكّدوا أنّ النتاج الأدبي لا يُصبح أدباً إلاّ إذا كان بلغة الأدب، التي لا جدال في فصاحتها، وأنّ الصداع الذي يُصيبُ العربيّة لا يسبّب مرضاً عضالاً لا يمكن البرءُ منه، لأنّ العربي في مختلف بلاده يؤمن بلغته الأدبيّة الموحّدة، وينام على عامياته كجزء من قوميّته، كما كان قبل نزول القرآن، حيث كان وإخوانه يُجْمعون على لغة أدبيّة واحدة، إلى جانب لغات لهجات أخرى(١).

علماً أنّ القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين، حفظ العربيّة، وجعلها نبيُّه رسالةَ ثقافة إلى شتى الأقطار العربيّة، وأنّ المؤسسةَ الجامعيّة منوطةٌ بواجب قومي، هو إحياء اللغة العربيّة والمحافظة عليها، تشاركها في ذلك الصروحُ الأكاديميّة ومختلف مؤسسات دولها العلميّة والثقافيّة، وأنّ النقد العربي مكلّفٌ بقيادة الفنون الأدبيّة إلى اللغة السليمة، الخالية من شوائب العجمة، وفساد العاميّة، وصولاً إلى أدب خالد، حيّ ومتجدّد، وأنّ جماهير الأمّة العربيّة في مشرق الوطن العربي ومغربه

---

(١) مجلة الفيصل، يوسف نوفل: لغة الأدب العربي بين الفصحى والعامية، العدد ٢٧ آب ١٩٧٩ ص٧٨.

تفهم الفصحى، في حين أنّ اللهجات العاميّة تبقى عسيرةَ الفهم إلاّ على البلد الذي تعوّد عليها، وكفى أمّتُها ما تعانيه من تمزّق في شؤونها السياسيّة، ولا يجوز أنْ نعزّز هذا التمزّق، باصطناع العامية المختلفة، بذريعة مصاعب قواعد اللغة العربيّة، خصوصاً وأنّ كثيراً من الأدباء والكتّاب، عالجوا في فصول طوال، مشاكل قواعد العربيّة، منذ عدّة قرون، ولكنْ للأسف لم تلق هذه الأعمالُ ـ الحلولُ ـ الاهتمامَ الكافي، وأنّه من العار علينا أن تكون اللغة العبرية والهندية والفارسية لغة تدريس العلوم التطبيقية في معاهد تلك الشعوب، في حين أنّ كثيراً من مؤسساتنا التعليميّة والجامعيّة تصطنعُ لغاتٍ أجنبيّةً في تدريس العلوم التطبيقيّة، على الرغم من أنّ علماء اللّغات أجمعوا أنّ لغةَ القرآن فيها من المرونة والاشتقاق قلّ مثيلها في بقيّة اللّغات الحيّة[١]. لأنّ العربيّة امتازتْ بخصائصَ ذاتيّةٍ، جعلتْها أرقى من اللغات الأخرى، سواء في بنيتها وآدابها، أو في غزارة مفرداتها ودقّة قواعدها، وأقدر منها في مختلف تعابير فنون القول.

---

(١) مجلة الكويت، عبد الرزاق البصير: حول تبسيط اللغة العربية، العدد ٧ ص٥٥.

لهذا ليس غريباً أن تحتفظَ اللغةُ العربيّة بوحدة الكتابة، في مختلف البلاد العربيّة وتصونَ أوضاعَ فصحاها، وتُستخدم في مؤسسات التعليم والثقافة والإذاعة. . . وتسير في طريق التوحيد والقضاء على أوْجه الخلاف الشكليّة، وأنْ يتصدى علماؤنا لهجمات الغرب الاستشراقيّة ـ المتعدّدة والمتنوّعة ـ وأنْ يبطلوا افتراءاتهم اللغويّة ويؤكّدوا أنّ اللغةَ العربيّة كانتْ لغةَ العلم والحضارة لفترات طويلة من تاريخ الإنسانية[1] وأنها انكفأت يوم تراجع أهلها، وضعفتْ حركتهم، وتضعضعتْ شوكتهم.

وهكذا يتبيّن أنّ الأمّة العربيّة تخوض حرباً لغويّةً ضد جميع المحاولات التي استهدفت ولا تزال النيْل من ثقافتها العربيّة، والحطّ من عنفوانها اللغوي، والتي تهدف إلى إحداث اختراق في كيان الأمّة، وإلى زعزعة الشخصيّة العربيّة وتسميم ناشئتها، بُغْية السيطرة عليها، والقضاء على قيمها التراثيّة وحضارتها التاريخيّة واللغويّة، وبخاصة بعد أنْ فشلتْ القوى المتآمرة في العالم من تحقيق مآربها، عبْر سلاحها العسكري والاقتصادي،

---

(١) مجلة الفيصل، العدد ٥٢، آب ١٩٨١.

ورأتْ مضطرةً ادخار جهدها الثقافي لاستثمار سلاحها الهادئ في معركة اللّغة العربيّة، في محاولة خبيثة للاستيلاء على العقول والأفكار، وبالتالي لتبني الأفكار والآراء التي تحقّق أهدافها.

إنّ وسائل الاستشراق التغريبيّة كادتْ أنْ تنفّذ مرامها، لو لم ينهض العالمُ العربي في القرن الماضي، ويندفع بخطى علميّة وثابتة نحو التقدّم في بناء الشخصيّة العربيّة، ويبعث ماضية في إحياء تراثه الحضاري والعمراني، ويُعيد رايةَ العلم والثقافة، ويُقدّم للأزمات القاسية حلولاً، كانت ثمرة لقاء محاسن الحضارتيْن العربيّة الإسلاميّة والغربيّة الأجنبيّة.

الفصل الثالث

الموقف العربي من حركة الاستشراق وطروحه

يختلفُ الحديثُ عن إشكاليّة الاستشراق[1]، وتتباينُ التصورات في معالجة مفاهيمه، من باحث إلى آخر، خصوصاً عندما لم تتحدّد هويّةُ البحث ومنهجه العلمي، في إيضاح أهداف العمل الاستشراقي، ومضامينه المعرفيّة، التي تأخذ مسالكَ متعدّدةً، تستدعي التأملَ والتقصّي وسبرَ الأغراض المبيّتة، وكشفَ الأبعاد التاريخيّة، وتصويبَ السقطاتَ الثقافيّة.

إنّ هذه الدراسةَ تتوخّى أن تكشفَ الغطاءَ عن نشاط الاستشراق الواسع، الذي امتدّ لقرون، وأثّر في الحياة العربيّة، وكوّن ثقافتَها المعاصرة، وأصبح من

(١) ظهرت كلمة مستشرق orientaliste في إنكلترا عام ١٧٧٩ وفي فرنسا ١٧٩٩، وأدرجت كلمة الاستشراق orientalisme في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨.

الصعوبة معرفةُ حقائق الأمور، وخصائصها الذاتيّة، والفصل بين مداخلاته، التي أخلّتْ بالوقائع التاريخيّة، وأضرّتْ بالمعرفة الثقافيّة، وأدّت إلى مطالعة منجزاته، ودوره ـ الإيجابي والسلبي ـ في نهضة المجتمع العربي ومقوّماته الحضاريّة.

في هذه الدراسة سأحاولُ أنْ لا أُقدّم دراسةً مجهريّة لقراءة بواكير الاستشراق حتى أيامنا المعاصرة، أو أعرض دراسةً ترمي إلى إرضاء أو تسفيه أحد، لأنّ الهدفَ الأساسي هو قراءةُ منظومةِ الاستشراق من منظور عربي معاصر، متحرّر من قيود الماضي وانطباعاته التسليميّة، ومتحرّزٍ من الاندفاع في قراءاتٍ خاطئة، غير متعمّقة في جوهر الموضوع.

إنّ غايتنَا هي محاولةُ الكشف عن دور الاستشراق، في المنهج والعقيدة والتاريخ، وليس تمجيدَ الاستشراق، أو التعرّضَ له بالتسفيه. وإنّنا لا نقصدُ من هذا البحث كيلَ المديح للمستشرقين، والدفاعَ عن مواقفهم وأساليبهم المعرفيّة، كما لا نتعمّدُ إغماطهم حقّهم، ورميَهم بأنواع الشتائم والتهم المغلوطة، بسبب بعض المستشرقين، ممّن سار في ركاب الاستعمار، ولجأ إلى العمالة للدول الأجنبيّة، وكاد للعرب والإسلام، ونال من التاريخ

العربي وتراثه الإسلامي، وبالتالي أنّ هدفَ دراستنا هو تبيانُ مواقف أدباء العرب ومفكّريهم من حركة الاستشراق، وما قدّمت من دراسات، وما أظهر روّادها من آراء ونظريّات.

في البَدء أريد أن أوضح، أنّ المستشرقَ في مفهومي، هو الأستاذُ الذي انكبّ على دراسة اللّغة العربيّة وتاريخها، واطّلَع على حضارة العرب ودين الإسلام، وهو بالأحرى الأستاذ الجامعي، الذي عُرِف عنه العلمُ والمعرفة والبحث، والعمل الدؤوب المستمر والمتواصل، أو مَنْ تخصّصَ في أحد فروع المعرفة المتّصلة بالشرق، والتي جعلها أسلوباً غربيّاً لفهم الشرق والسيطرة عليه. وهو مثيل المستشرق كارل بروكلمان ١٨٦٨ ـ ١٩٥٦ الذي يُقال إنّه أمضى نصفَ قرن في وضع كتابه المعروف تاريخ الأدب العربي، وليس كالمستشرق الموظف المأجور، أو الجاسوس لجهة معيّنة، ودولة محدّدة، الذي يدرسُ لغرض مشبوه، ويأتي إلى البلدان العربيّة، ممثّلاً لحكومة بلاده في سفارة وقنصليّة، أو موفداً من هيئة تُعنى بالشؤون السياسيّة، لأنّ هؤلاء ليس لهم صفةٌ علميّةٌ وأكاديميّة، وهم ليسوا أساتذةً في جامعة، أو باحثين في معاهد، تشهدُ لأعمالهم

بالجدّيّة والرصانة، والسعي لنشر العلم والمعرفة، من دون تعصّبٍ ذاتي وهوى شخصي.

إذا كانتْ حركةُ الاستشراق قد سبقتْ الاستعمار بآماد طويلة، فإنّها ولا شك، قويتْ وصَلبتُ في القرن التاسع عشر، مع بروز الدول الاستعمارية، وانتشار سياستها التوسعيّة، وسيطرةِ أيديولوجيتها على الجزء الأكبر من البلاد العربيّة. وإنْ كانت مظاهرُ الاستعمار التقليديّة، قد انتهت في المرحلة المعاصرة، فإنّ حركةَ الاستشراق ومنظماتها المتعدّدة، أخذتْ في التطوّر الأفقي، وبدت ظاهرةً في مجالات كثيرة، وفي أجواء فكريّة متعدّدة، وأنشطةٍ ثقافية متنوّعة.

إننا في دراستنا لموقف الكتّاب العرب ومفكّريهم، من اتّجاهات حركة الاستشراق ومن المستشرقين أنفسهم، نستطيعُ ملاحظةَ ثلاثِ فئاتٍ متمايزة، الواحدة عن الأخرى، بنهجها وأسلوبها، وشقّ طريقٍ لها، وسْط تأييدٍ من النخبة العربيّة المثّقفة. الفئة الأولى عارضتْ حركةَ الاستشراق، وعادتْ توجهاتِهم، وشكّكت في أعمالهم، واتّهمتهُم بالعمالة لدولهم، والتحامل على العرب والإسلام، وقد شكّلتْ الأكثريةَ الساحقةَ من الأقلام العربيّة، والرأي العام في المنطقة، أمثال شكيب أرسلان

وأحمد فارس الشدياق وأنور الجندي وعمر فروخ ومالك بن نبي وحسين الهراوي ومحمد عزت إسماعيل الطهطاوي، ولفيف من أصحاب الكلمة العربيّة، الذين تصدّوا للاستشراق، وحاولوا النيْلَ منه، وتبْيانَ مغالطات أصحابه.

والفئةُ الثانية كانتْ أكثرَ التزاماً بالبحث العلمي، وأمانةً بالمعرفة الآكاديميّة. عبّرتْ عن موقفها من حركة الاستشراق، من وجهة نظر رصينةٍ وموضوعيّة، لأنّها رأت في أعمال المستشرقين جهداً، لا يمكن تجاهله ونكرانه، خاصةً وأنّه أدّى خدماتٍ جلى للأمة العربيّة والإسلامية، على مختلف الصعد، وأنّ التقصير الذي انتابه، هو كما يقول شاعرنا أبو الطيّب المتنبيّ كتقصير القادرين على التمام، وناتج عن عدم الإلمام الكامل باللغة العربيّة، والإحاطة الشاملة بإفرازاتها الصرفيّة، وتنوّعاتها الاستشراقيّة، أو الإدراك الصحيح والفهم الدقيق للدين الإسلامي وحضارته الإنسانيّة. ويُلاحظ أنّ هذه الفئةَ قد أبعدتْ عن صفوفها المستشرقين، ممّنْ كانت لهم مآربُ سياسيّة وارتباطاتٌ استعماريّة، ونجحتْ في جذْب تيّارٍ عربي كبير، من أصحاب الأقلام الحرّة والمواقف الرصينة. وكنتُ أنا شخصياً من ضمن هؤلاء

المنصفين، الذين لا نستطيع أن نبخس جهودَ رجال الاستشراق حقّهم، ولا نتورّع عن إعلان جدّيتهم في بحثهم، وصدق تعاملهم مع مكتشافتهم الحديثة، خصوصاً وأنّنا نعرفُ الجهدَ الكبير، الذي بذله المستشرقون في خدمة لغتنا وتاريخنا وحضارتنا، وما قدّموه من جليل الآثار، من تحقيقِ ونشرِ المخطوطات الهامّة وفهرستها، ووضعِ الدراسات العلميّة والنظريّات الدقيقة، والمعاجم التي صنّفوها، والأبحاث التي نشروها، في كبْريات المجلات الاستشراقيّة، والمؤلفات التي تُعدّ مراجعَ أساسيةً في الكثير من الموضوعات التي طرقوها، وتناولتْ الحياة العربيّة والإسلاميّة، وشملتْ جوانبَ المعرفة المجتمعيّة كافة.

أما الفئة الثالثة وهي التي أيّدت وجهاتِ نظر المستشرقين، وسلّمتْ بنظرياتهم، فقد أغدقتْ على كتاباتهم كيْلاً من المديح والتقريظ، ولم ترَ في أعمالهم أي نقص أو تثليم، أمثال محمد كرد علي، وصلاح الدين المنجد وعبد الرحمن البدوي وفيليب حتي، وأمثالهم من كتّاب نهضتنا الحديثة.

الاستشراق والموقف العربي المعارض:

اتّخذَ أصحابُ هذا الرأي موقفاً معارضاً من الحركة

الاستشراقيّة، وهاجمَ روّادُه طروحَها المختلفة، وما توصّلتْ إليها من دراسات ومفاهيمَ، وأشاروا في أكثر من مناسبة وحديث، إلى أنّ المستشرقين يتعاطون مع الموضوعات المتناولة، من منظور شخصي ومصلحي، ويتصرّفون في فهم النصوص وترجمتها، ونقْلها إلى لغاتهم، حسب أمزجتهم وتصوراتهم الخاصة. وهذا ما أشار إليه الدكتور مصطفى السباعي حين أكّد، أنّ هؤلاء الأساتيذ ـ المستشرقين ـ لم يأخذوا العلمَ عن شيوخه، وإنّما تطفّلوا عليه تطفّلاً... وأَضاف أنّ كلاًّ منهم «إذا درسَ في إحدى لغات الشرق، أو ترجم شيئاً، تراه يخبطُ فيها خبطَ عشواءِ فما اشتُبه عليه رقّعه من عنده بما شاء، وما كان بين الشبْهة واليقين حدّسَ فيه وخمّن، ورجّحَ المرجوح وفضّلَ المفضول...»[1].

وإنّ أحمد فارس الشدياق يقف موقفاً عدائياً منهم، ويرفض ادّعاءاتهم، ويسفّه مزاعمَهم، ويعدّ آراءَهم أشبه بالترهات الباطلة، التي لا تستوي أمورُها، إلاّ عند السذّج من الجهلة المتعلّمين، والماكرين للثقافة العربيّة. ويبيّن في معرض انتقاده أحد المستشرقين الفرنسيّين، أنّ

---

(١) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص١٣.

هذا المستشرق، إذا التبسَ عليه المعنى، يعمدُ كأسلافه إلى التمويه والترقيع، وأنّه لم يأخذ العلمَ من منابعه الصافية، وإنّما يتطفّلُ عليه، ويُدْخلُ رأسَه في أضغاث أحلام، ويتوهّم أنّه يعرفُ الحقيقةَ[1]. ويؤكّد الشدياقُ أنّ المستشرقين أساءوا إلى اللغة العربيّة، وقذفوا تاريخها بأوصاف قاسية، وأثاروا قضايا هدّامة، ابتُلِيَتْ بها المنطقةُ العربيّة والشرقيّة، الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. مما دفع بأحد الكتّاب المعاصرين إلى تحميلهم أوزارَ الأحداثِ المؤلمة، والفتن الداخلية، والمفاهيم الخاطئة، وإلى القول إنّ المستشرقين في جمهورهم، لا يخلو أحدُهم من أنْ يكون استعماريّاً أو يهوديّاً صهيونيّاً، وإنّ الاستشراقَ ينبعثُ بالتالي من بعض الدول الغربيّة المتآمرة، التي وجّهتْ الاستشراقَ وفقَ مصالحها، وجعلته دينياً لضرب الإسلام، ونشْر المسيحيّة بالقوة والتبشير، أو صيّرته علمانيّاً بغية تخريب عقائد المسلمين، لتُضعفَ مقاومتَهم، ويسهل استغلالهم[2]،

---

(١) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق في ما هو الفارياق، مكتبة العرب، القاهرة ١٩١٩ ص٣٧.

(٢) مجلة الفكر العربي: الاستشراق: التاريخ والمنهج والصورة، العدد ٣١ آذار ١٩٨٣ ص١٥.

وإنّ طلائعه الاستعماريّة جالتْ في البلاد الشرقيّة، وراحتْ تستعدّ لهجمات جديدة، بعد حروبها الصليبيّة. وقد عُدّت أشدّ ضرراً، وأبعد خطراً، من حرب الحديد والنار، وكان شعارها مدرسةً أو مستشفى أو ملجأ أو كتاباً، وعناوينُها مخادعةً، يقطر باطنها بالسمّ الناقع[1]، وتُشعل الخلافاتِ، وتُوقع البلادَ في مخالب الاستعمار، خاصةً بعد أنْ لبسَ الاستشراقُ ثوب العالِم، وأتقنَ لغةَ البلاد، واصطنع البحثَ العلمي، وسعى لإيجاد صلةٍ بين الأهالي وجيوشه الفكريّة الغازيّة[2].

نجحَ الحلفُ الجديد، الممثّل بالاستشراق والاستعمار، في تغريب اتجاهات أهالي المنطقة، وبرع في المسالك التي طرقها، بُغية التغلغل في ميادين الحياة كافة، وتوجّه إلى الفرد والجماعة، فدخلَ بابَ الأخلاق والآداب، وولج ضروبَ الفنون والعلوم والآثار والأديان، واستعان بمؤسّسات الأمم المتحدة وأنشطتها المختلفة، حتى تمكن من القضاء على البنية التقليديّة

---

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ص١١٩.

(٢) حسين الهراوي: المستشرقون والإسلام، مطبعة المنار، القاهرة ١٩٣٦ ص١٤.

للحياة الاقتصاديّة ومظاهرها الاجتماعيّة، وأثّر على الفرد العربي والشرقي في طرق معيشته، وغيّر من أنمطة تفكيره وسلوكه اليومي، وجعل مخزونَ ثقافته الموروثة عرضةً للشكّ والحيرة في الاجتماع والسياسة، والاقتصاد، وخدع الناس مكراً بموضاعاته المدحيّة، وتقديراته الإيجابيّة.

إنّ الاتهام الأقدم والأكثر انتشاراً ضد الاستشراق، هو كونه الأداة المساعدة للتغلغل الاستعماري في أرض العرب والإسلام، وإنّ المستشرق هو المستكشفُ الطليعي، الذي يسبقُ الاحتلالُ، ويمهّدُ له الطريقَ، وإنّه الحليف والمستشار التقني للتاجر الأوروبي والسياسي الأجنبي. إنّه أحدُ المسؤولين عن الشرور التي أصابتْ الشعوبَ الشرقية[1]. وإنّ أبرزَ المستشرقين مَنْ جعلَ نفسَه فَرِيْسَةً للتحزّب ضد العرب والإسلام.

وقد أبان الدكتور مصطفى هدارة علاقةَ الاستشراق بالاستعمار، وبقواه المخابراتيّة، فأكّد أنّ هناك علاقةً مريبة بين المستشرقين وأجهزة المخابرات في الغرب، وأنّه لا يوجد فرقٌ بين المستشرق المتخصّص، الذي

---

(١) هاشم صالح: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، دار الساقي، بيروت ١٩٩٤ ص٢٣.

يأتي البلادَ العربيّة، ويُقيم فيها فترات طويلة، ويحصلُ على قدر كبير من المعلومات المفيدة لمؤسسات الاستخبار، وبين المستشرق العميل المرتبط مباشرة بأجهزة المخابرات[1].

تجلّى هذا النوعُ من العمل الخسيس في عصرنا الحاضر، بعد استقلال معظم الدول العربيّة والإسلاميّة، وبالتحديد في سفارات الدول الغربيّة وقنصليّاتها الرسميّة، حيث وُجد لدى هذه الهيئات سكرتيرٌ وملحقٌ ثقافي، وجهازٌ إداري يُحسن العربيّة، يتّصلُ برجال الفكر والصحافة والسياسة، ليتعرّف إلى أفكارهم، ويبثّ فيهم خطابَهم السياسي، واتّجاهاته الفكريّة. وكثيراً ما كان السفراءُ يبثّون الدسائسَ، ويفتعلون الأحداثَ، للتفرقة بين الدول العربيّة والإسلاميّة، من خلال توجيه النصحِ وإسداء المعرفة، ودراسة نفسيّة المسؤولين المحليّين، واستغلالهم نواحي الضعف في سياستهم، وسيطرتهم على اتجاهات الهيئات الشعبيّة، المضرّة بمصالحهم. وأصبح الاستشراق ـ ضمن هذه الرؤية وعند أصحاب هذه النّظريّة ـ عينَ الاستعمار الذي بها يُبصر ويُحدق،

---

(١) أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدامة معاصرة ص٣٧.

ويدَه التي بها يُحس ويَبطش، ورجلَه التي بها يمشي ويتوغّل، وعقلَه الذي به يحكم ويحاور، ولولاه لظلّ في عمَيائه يتخبّط[1]. وباتَ جهازُه ـ الاستشراق ـ المستكين في جهاز الاستعمار، يهدي أسيادَه الطريق، ويكشف لهم المسالكَ الضيّقة، ويؤمّن لهم الوسائل الناجحة. وصار أبلغُ تعريف للاستشراق وأصدقُه، هو التعبيرُ عن اهتمام أوروبة بالشرق، ووضعه في سياق حركة التاريخ التوسعيّة الحديثة، التي خرجت من حدودها، طالبةً السيطرة على البلدان الأخرى، وإخضاع الشعوب لمخططاتها الغادرة.

إنّ تآمرَ الدول الأجنبيّة على المنطقة العربيّة والشرقيّة لم تهدأ، خاصة بعد أن أخذتْ القوى التغريبيّة ترفعُ شعارَ أوْروبة البلاد، وتزعمُ أنّ المنطقة ستبقى بعيدةً عن التقدّم، وغريبةً عن روح العصر، طالما ترسفُ في أغلال الماضي، وأوهام العقليّة القديمة، وتؤمنُ بالمعتقدات الدينيّة المتخلّفة. والغريبُ أنّ الدول الأوروبيّة تتناقضُ مع نفسها، في طرحها السلبي للدين من جهة، عندما لا نجد تفسيراً منطقيّاً من رفع شعارات العلمانيّة والليبراليّة داخل بلادها، وتأييدها الدعوات

(١) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢ ص٨٩.

الدينيّة، وتشجيعها المنادين بها في الخارج.

فعلى سبيل المثال أميركا الماديّة، التي لا يعرفُ عالمُها المفاهيمَ الروحيّة، والتي تعبدُ الحديدَ والذهبَ والبترولَ، غطّتْ نصفَ الكرة الأرضيّة بمبشّرين، يعملون لصالح سياستها الاحتكاريّة. ويزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحيّة، وسلام ديني، وفرنسا العلمانيّة، التي كانت تُعادي الحركات الدينيّة، ووضعتْ قيوداً قاسيةً على أنشطتها، نراها تؤازرها في بلادنا، وتشدّ على أيدي رسلها، وتؤمّن لهم أفضلَ الإمكانيات لنجاح مهمتهم. أما إيطاليا التي ناصبت الكنيسة العداء، وحجزتْ البابا في الفاتيكان، فقد بنتْ سياستَها الخارجيّة على التوسع والاحتلال[١]. واستطاعتْ المؤسساتُ الغربيّة ومحافلها الماسونيّة، المتعدّدة والمتنوّعة، أن تجد أرضاً خصبةً في المنطقة الشرقيّة، وأنّ تزرعَ أفكارَها المشبوهة، وتغزوَ بعضَ العقليّات الشابّة، وتُخرجَهم من ذاتيّتهم الخاصّة، واتّهمتْ المصلحين بنعوت الرجعيّة والجمود والتخلّف، باسم التحرّر من العادات القديمة، بعد أنْ ملأتْ الدنيا صراخاً عن الحريات الضائعة، والحقوق الإنسانيّة

---

(١) د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ: التبشير والاستعمار ص٣٤.

المهضومة، وأفرطتْ في الثناء على الحركات السريّة المشبوهة، والسريّة المتأوربة.

ألم تقل دائرة المعارف الماسونيّة، إثر نجاح انقلاب مصطفى كمال ـ المعروف بأتاتورك ـ وإلغائه الخلافةَ الإسلاميّة، والأخذ بالقوانين الأوروبيّة والثقافة الغربيّة، إنّ هذا الإصلاح الذي أحدثه هذا الثائرُ ـ المصلح ـ كما ذكرنا سابقاً هو ما تبتغيه الماسونيّة في كلّ أمة ناهضة؟ وأولم يُبارك معظم المستشرقين فعلته، ويعدّوه فريداً في نموذجه، ولا يماثله أحدٌ من رجالات الماسون سابقاً ولاحقاً[١]؟ وأولم يقم أرنولد توينبي بتأليف كتابه «الخلافة» ليسوّغ ما فعله أتاتورك، ويدافع عن أعماله، ويُعلنْ أنّ الإسلام دينُ عبادة، وليس منهجَ حياة ونظامَ مجتمع متكامل[٢]؟

اتّخذ أصحابُ هذا الرأي موقفاً مناهضاً من أقوال المستشرقين، وعادوا طروحَهم، وهاجموا مقولاتهم. فمالك بن نبي رأى في أعمال المستشرقين خطراً على

(١) إسماعيل الكيلاني: فصل الدين عن الدولة ص١٩٥.

(٢) د. منذر معاليقي: معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية ص٢٥٤.

المجتمع العربي والإسلامي، وأكّد أنّه لم يميّز بين مستشرق وآخر، لأنّهم في تشويه الإسلام سواسيةٌ، يتحمّلون خطيئة التأثير سلباً على الفكر الإسلامي ديناً ولا يستثني المستشرقين، الذين أنصفوا العرب، ودافعوا عن الإسلام ديناً وحضارةً وأدباً، بل طالبَ بوقفة متأنيّة من ادّعاءاتهم، وأشار إلى أهميّة مراعاة الحقيقة التاريخية[1].

ويُعتبر مالك بن نبي ظاهرةً فريدةً في الفكر العربي المعاصر، لأنّه تعلّم العربيّة بعد أنْ تقدّم به السن، وتعرّف على الفكر العربي والإسلامي، على يدِ طائفةٍ من المستشرقين، واستطاع الإلمامَ بهذا الفكر، والتعمّق بدراسة قضايا عربيّة وإسلاميّة متعدّدة، وكرّسَ حياته للدفاع عنه، وإنارةِ السبيل أمام الأجيالِ المعاصرة، وأشار إلى أنّ العالم الإسلامي مهدّدٌ في المصير والكيان، وأكّد أهميّةَ تجدّد الأفكار، والتمسّكِ بأصالة حضارته، ورفضَ استيرادَ القيم الثقافيّة من الخارج، حتى يتمكّن من صُنْع أفكاره الرئيسة ومقومات وجوده الكيانيّة.

أمّا الدكتور حسين الهراوي فإنّه يهاجم المستشرقين، ويجرّد أعمالهم من العلميّة، ويَعتبرهم

---

(١) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٩ ص٢٥.

طلائعَ جيوش الغزاة المستعمرين، ويُظهر أنهم تفنَّنوا في وسائل تشكيك المسلمين في عقائدهم، والطعن في تاريخهم، والحطّ من سمعة نبيِّهم. ويلخّص الهراوي رأيَه في المستشرقين وأعمالهم بجملةٍ واحدة، يصدرُ فيها حكماً مبرماً. فيقول: «الاستشراقُ مهنةٌ ضد الشرق وضد الإسلام»[1]. وهو لا يترك فرصةً إلاّ واغتنمها لينالَ منهم، وليصبَ جامَ غضبه على مباحثهم، التي تنقضها الروح العلميّة، والتي تتنافى محاورُها مع الأصول المنطقيّة والثوابت الموضوعيّة. ويُشير إلى أنّهم يفترضون رأياً يتلمّسونه في آيات القرآن الكريم. فإذا وجدوه متوافقاً مع معانيها أخذوا بها واقتبسوها، وإنْ وجدوها لا تتناسب مع تطلعاتهم، تجاهلوها وادعوا أنّها غيرُ موجودة في القرآن، ليبقى القارئ في ضبابيّة الرؤية، ويظلّ في أتون التكهّنات، والأفكار الخاطئة. تلاحقه اتهاماتها الباطلة، ومزاعمُها الملفّقةِ. وينتفضُ على دائرة المعارف الإسلاميّة المترجمة إلى عدّة لغات، والتي يَعتقد أنها أخطرُ ما أتى به المستشرقون، سواء من ناحية التحريف في النصوص الدينيّة والأحداث التاريخيّة، أو في الطعن

(١) د. حسين الهراوي: المستشرقون والإسلام ص٧٩.

بالشخصيّات المعروفة، وتشويه مواقفها، والافتراء على مقاصدها، وأنّ صفحاتها تفيض بالطعن الجارح في العرب والإسلام، وتطفح بحشو أقذر المثالب[١].

ويُعتبر أنور الجندي أحد أكبر المتكلّمين في ميدان الاستشراق، وخلص إلى أنّ الاستشراقَ، هو العلم الذي يصبّ في خانة السياسة والاستعمار[٢]، وأنّ هدفه هو إذابةُ الشخصيّة العربيّة والإسلاميّة، واحتواءُ هويّتها القوميّة، والإعجابُ بحضارة الغرب، وترسيخُ نظمه وسيطرة لغته، وأنّ الشكوك المتداولة في أيامنا، والمتناقضات الكثيرة، التي تهوّم حول العديد من الأمور والقضايا، هي من صُنْعه، استغلّها في ميادين التغريب، وأساليب الغزو الثقافي، لتأكيد السيطرة الاستعماريّة والنفوذ الأجنبي، ولو من خلال طرح أسماء جديدة، وتحت عناوين حديثة، انطلاقاً من شعار التبادل الثقافي، ومروراً بأهميّة الانفتاح على العالم المتحضِّر.

حاولَ أنور الجندي أن يُحصي القضايا العديدة،

---

(١) المصدر نفسه ص٧٣.

(٢) أنور الجندي: شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت ط٢ ١٩٨٣ ص٩٥.

التي أثارها الاستشراقُ بالنقد والتحليل، فدرس اتجاهاتِ أصحابها، وركّزَ على أبعاد غاياتها المرامة. وتناولَ المتأثرين بها من علماء العرب والمسلمين، الذين فتنتْهم أبحاثها العلميّة، ومناهجها الحديثة، فرفض طروحَهم النظريّة، وعادى تصوّراتهم الخياليّة، وانتقد أساليبَهم الماكرة، وطالبَ بالعودة إلى الكتب العربيّة ـ التراث ـ والاعتماد على المصادرِ الموثوقة ـ المميّزة، لتأكيد أصالةِ الأمّة، ودورِها الفريد، في حماية الحريّة، وصونِ الاستقلال[1].

كشفَ مؤامراتِ الحركة الاستشراقيّة وتشكيكها في ديانة العربِ وتراثِهم اللغوي والمعتقدي، وواجه الفكرَ الاستشراقي، وفنّد مزاعمَه، وتعرّض لترهاتهم، وتحدّى ادّعاءاتهم، وخاضَ معركةَ الفكر العربي الإسلامي، في تحدّيه للاستعمار، والردّ على شبهاتِ استشراقه، التي اعتبرها أبرعَ وسائلِ التغريب وأخطرَها. وأشار إلى أنّ عملَ الاستشراق في إحياء التراث العربي، الذي سُرق من البلاد، بطرق مختلفة، جاء حسب مشيئته، مخالفاً الخصوصيّة العربيّة، وأنّ كلّ ما كتبه العربُ من ردودٍ،

---

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ص٧٠٢.

لا يَغدو قطرةً في بحر، جرتْ في أبوابٍ محدّدة، ليستْ من الأهميّة بالنسبة للتراث[1]. جاءت في الكلام على التصوف الفلسفي وعلم الكلام، وتناولتْ موضوعاتِ الاعتزال والأفكار الباطنيّة، التي يضعُها أنور الجندي في خارج الذاتيّة العربيّة، والتي تتنافى مع أصالة الأمّة، وتُظهر أنّ غرضها لا يخرج عن طرْحِ مشكلاتٍ مزْمنةٍ، أفسدتْ المجتمع ومزّقتْ وحدتَه، وجزّأت أقطارَه وادّعت أنّ العربَ قبل الإسلام شكّلوا أمّةً، جسّدتْ وحدتَها الكاملة، ونظمتْ مجتمعَها الموحَّد.

ولهذا لا يرى صاحبُنا الجندي في كتاباتهم ـ حتى المنصفة وغير المنحازة ـ إلاّ أعمالاً يستشفّ منها الحقدُ والكيدُ والضغينة، ولا يخرج من دراستها للمجتمع العربي والإسلامي، سوى ضرْب مقوّمات وجود الأمّة، وتمزيق وحدة أبنائها، وإفساد العلاقات الاجتماعيّة بين أجناسها، وإثارة الشبهات حول العديد من قضاياها الفكريّة والتاريخيّة، التي تمثّلت في العناية باللهجات العاميّة، والنيْل من اللغة العربيّة، واتهمتها بالعجز عن مسايرة التطوّر ومواكبة العصر، ودعت إلى إحياء

(١) أنور الجندي: شبهات التغريب في غزو الإسلامي ص٨٧.

الحضارات القديمة كالفرعونيّة في مصر، والفنيقيّة في الشام، والأشوريّة في العراق، والبربريّة في المغرب، والزنجيّة في السودان[1]. وجعلتْ أنور الجندي لا يتردّدُ في الإعلان، عن أنّ غايةَ الاستشراق، تقتصرُ على التقليل من أهميّةِ دورِ العرب والمسلمين، في التأثير بالحضارة المعاصرة، وأنها تبلورتْ في التماسهم المزاعمَ والمواقفَ، التي تُدخل اليأس إلى قلوبهم، والتي تجعلهم مجرّدَ نقلةٍ للحضاراتِ السابقة، وليس لهم تأثيرٌ يذكرُ على الحضارة الغربيّة، لأنّ العقلَ العربي شيمتُه الجمودُ والتقليد.

لذلك كله اعتبر أنور الجندي أنّه من الخطأ الفادح تصويرُ الحركة الاستشراقية بأنّها حركةٌ علميّة، لأنّها تفتقرُ إلى شرائط البحث العلمي ومنهجه، الذي يقومُ على التجرّد والإنصاف، وهي أقرب إلى نهج أيديولوجي، يُرادُ من خلاله ترويجُ تصوراتٍ معيّنة، ينطلق بعضُها من فرضيّاتٍ مسبقة، وأحكام مُبْرمة، وقراراتٍ اعتباطيّة قاطعة[2]، ويعتمدُ بعضُها الآخر على تأويلاتٍ هوائيّة، وتهيّؤات شخصيّة، نتيجة الفهم الخاطئ لبحوث بعيدة

---

(١) أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدامة معاصرة ص٤١.

(٢) أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدامة معاصرة ص٣٩.

عن مداركهم الروحيّة والفطريّة، وتربيتهم العقلية والاجتماعيّة، التي تتعارض مع تنشئتهم العامة وطبيعتهم الخاصة.

لم يلتفت هذا الموقف العدائي في الاستشراق إلى الخدمات الجلّى، الكثيرة والمتنوّعة، التي جاءتْ بها كتابات المستشرقين وأعمالهم، التي نُشرت في أبحاث مؤتمراتهم، ومجامعهم العلميّة، ودارت حول مسائل هامةٍ وقضايا أساسيّة، فاضت على الإنسانيّة بإبداعاتها الخيّرة، وتمنطقتْ بأساليب العصر ومناهجه المتقدّمة. كما لم يتأثّر هذا الموقف المعارض من إخراجهم الكتب البحثيّة، والمصنّفات الجامعة، والدوريّات المتخصّصة، التي عَرفتْ جمالَ الإخراج وجودةَ الطباعة، التي جذبتْ الأنظارَ، واسترعتْ الانتباه.

بَيْد أنّ الدراسة الحصينة لا تستطيع أن تغمضَ عملَ هؤلاء المستشرقين، وبالأحرى أننا لا نقدر أنْ نتغاضى عن فضلهم في ريادة بعض الموضوعات الحديثة، وأنْ نتعامى عن دراساتهم الهامّة، التي وُفّقت في إبراز تاريخنا، وإنسانيةِ حضارتنا، وزادتها تألقاً واقتداراً. ويكفيهم عملاً أنّهم تمكّنوا من أنْ يضعوا تراثنا

على بساط البحث، وأنْ يُثيروا عند كتّابنا ومفكرينا الهمّة والمبادرة لانتزاع التراث من أيديهم، وتخليصه من عبثِ مَنْ تحاملَ عليه من المغرضين ـ السياسيين والاستعماريّين ـ وجعْله في تصرّف الغيارى من أبناء هذه الأمة، ليقوم بدراسته، ويتصدّى لبحوثه ومعارفه، ويُصحّح النظرةَ الخاطئةَ ـ الماكرةَ والظالمة ـ التي أُلصقَتْ بأمتنا، في مرحلةِ سقوط دولها، وتداعي حضارتها. إنّنا لا نريدُ أنْ نضربَ على يد المستشرقين، ونتعسّفَ على أعمالهم، لأنّنا نريدُ توخّي الحقيقة، والتعرّفَ على ما لهم من إيجابيّات نذكرها، وما لهم من سلبيّات نسجّلها عليهم، اقتداء بمنهج الإسلام، الذي حثّنا على اتّباعه، إحقاقاً للحق، ووضعاً للأمور في نصابها، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ . . .﴾[1].

الاستشراق والموقف العربي المنصف:

لم تكنْ فئةُ الكتّاب العرب المعارضة للاستشراق، هي الوحيدةُ التي عالجتْ موضوعةَ الفكر الاستشراقي. فهناك فئةٌ منصفة، اعتدلتْ في أقوالها، وتجرّدتْ في

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

أحكامها، وأصدرت آراءَها عن تعقّل ودراية، كما فعلتْ بنتُ الشاطئ عائشة عبد الرحمن، التي اعترفتْ بجليل عملهم، ونبْل صنيعهم في مادة التراث، التي انكبّ رجال الاستشراق على ثروتها الثقافيّة، وجهدوا في صونْها من الضياع، وجمْعها في مصنّفاتٍ وأبوابٍ متخصّصة، وعملوا على فهرسة موضوعاتها، فهرسة علميّة دقيقة، اعتمدت على منهج بحثيّ متقدّم، وفّرت أمانة التحقيق، وأصولَ الكتابة الموثّقة في وقت كانت بلادُنا في غفلة عن النهضةِ العلميّة، واليقظةِ الاجتماعيّة والسياسيّة، وكان رجالنا يغطّون في سباتٍ عميق، لا يعبأون لوجود هذه الثروة ـ التراث ـ ولا يعرفون قيمتَه ويقدّرون أهميّة الحاجة إليه، وربما كان خدّامُ دور العبادة يبيعون نفائسَه كُوَماً لتجّار الحلوى والبقول...[1].

أظهرتْ بنتُ الشاطئ أنّ نهضتنا الحديثة قامتْ على أكتاف المستشرقين، وبيّنت أن صحوتنا من إرثنا الدامس الثقيل، مهّدت لها ألوفُ الذخائر العربيّة، التي وُجدتْ بين أيدينا محرّرةً موثّقة، نلوذُ بها في دراسة مختلف

---

(١) عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: تراثنا الثقافي بين أيدي المستشرقين، الكويت ١٩٥٧ ص٣٠٧.

الموضوعات، اللغويّة منها والفكريّة والتراثيّة، ونعود إليها في دراسة الأبحاث المتخصّصة والموضوعات الأكاديميّة، وهي ملاذُ المجتهدين، ومدعاةُ فخر الباحثين واعتزازهم.

لكنّ تعاطفَ بنت الشاطئ مع إنتاج الاستشراق الثقافي، وثناءها على منهجيّتهم المتعمّقة، لم يَجعلْها تغضّ الطرفَ عن ما لحق أعمالهم من أخطاء وأخطار، بل أشارت إلى السلبيّات التي اعتورتْ مسيرةَ عملهم، وبيّنتْ أنّ الاستشراقَ استهدفَ في نشأته الأولى، خدمةَ النفوذ الديني، وتحقيقَ الأطماع السياسيّة والاستعماريّة، وأكّدت أنّ ما راوده من التواء في أساليب الكتابة، والاضطراب في الأخبار التاريخيّة، والاعتساف في تأويل النصوص، يعود إلى عدم تذوّقهم اللغةَ العربيّة، وإدراك أسرارها في الأداء والتعبير، وإلى ما تعوزهم النزاهةُ والإخلاص، وأنّه لا يجوز بعد اليوم، أن يبقى هذا التراثُ في الأيدي الأجنبيّة، وأنْ نتخلّى عن تراث نحن أهلُه وأصحابه، لسوانا من الغرباء، يفعلون به ما يحلو لهم، وينفثون لغتَه الحقدَ والكراهية، وأنّه يدفع بالتالي العديدَ من مفكّري العرب وباحثيهم، للتصدّي لمكائد المستشرقين وأحابيلهم.

أيّد هذا الرأيَ الدكتور محمد روحي فيصل في

تساؤله عن سببِ إعجابنا بالاستشراق، وقال ألعلمه النزيه أو لذوقِ رجاله الأدبي؟ وأجاب أنّه بعيدٌ عنه، بُعد السماء عن الأرض، وأوضح أنّ المستشرق مهما تضلّع من اللغة العربية، وأخذ من الثقافة الأدبيّة... فلن يُدركَ أبداً غايةَ الأدب، ولنْ يستطيعَ أنْ يتذوّقَ جمالَ قطعةٍ أدبيّة أو قصيدةٍ فنيّة، على قدر ما يتذوّقها العربي[1].

أعلن الدكتور محمد روحي فيصل موقفاً معتدلاً من الاستشراق، وتحفّظَ إزاء بعضِ طروحه، وتعاملَ بدقّة مع موضوعاته، واعترف بأنّه لا يُؤخذ بكثير من أعمالهم، وانتقدَ منتوجَهم الفكري، ودعا إلى الثوابتِ العلميّة، وتحفّظَ أمام مَنْ أسرفَ في مديحه، من أشياخ العلم في الشام، أمثال محمد كرد علي الذي سنذكرُ موقفَه لاحقاً، من دون أنْ ينتقصَ من أقدارهم، ويحطّ من مكانتهم العلميّة والمعرفيّة، في كلام بذيء، ولفظٍ بغيض، وثناء كاذب، بل وانكبّ على تاريخ الاستشراقِ ومناهجه، يُريدُ الوقائعَ التاريخيّة والحقائقَ العلميّة. ففي مقال له في مجلة الرسالة، لفتَ النظرَ إلى أخطاء المستشرقين، والهنات التي وقعوا فيها، ودعا إلى التعامل

---

(١) د. صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص٢٢٣، ٢٢٤.

مع منشوراتهم بحذر، بسبب عدم نزاهتهم للعلم الخالص، وأحكامه الغائية المرسومة[1]. وأشار إلى الشكّ في دراسة المستشرقين والحيطة من تحليلاتهم، للبس اللغة العربيّة عليهم، وعدم تذوّق آدابها. وبَيّنَ الأسبابَ التي جعلَتْ دراستهم هي دون الكتابات التي يقوم بها العرب.

وعرض الأميرُ شكيب أرسلان القضيةَ نفسها فأعلن أنّ الشرقيّين أدرى من الغربيين بآدابهم ولغاتهم، وأثبت أن أحداً لا يدّعي أنّ مرغليوث وغيرَه من المستشرقين يستطيعون أنْ يفهموا الكلامَ العربي أكثر من علماء العرب، وأكّد أنّه من الحمق الظنّ أن مرغليوث لكونه إفرنجياً، صار يُميّز الشعرَ المصنوعَ على لسان الجاهليّة من الشعر الجاهلي الأصلي[2].

ونحن بدورنا نؤيّدُ وجهةَ النظرِ هذه، ونُلفتُ النظرَ إلى أنّ المستشرقَ الأعجمي، الذي نشأ في لسان أمّته، وانغَرسَ في آدابها وثقافتها، قادرٌ على التفكير في شؤونه، والإلمام بقضايا بلاده العامّة، لكنّه غير قادر أنْ يفتي في اللسان العربي، والتاريخ العربي، والدين

---

(١) مجلة الرسالة: أغراض الاستشراق السنة ٣، ١٩٣٥ عدد ١١١ ص١٣٣١.

(٢) د. صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص٢٢٣، ٢٢٤.

العربي، وأنْ يُصبحَ مُحيطاً بأسرار اللغة، وأساليب قواعدها، وبعجائب تصاريفها، التي لا يُتقنها إلاّ قلّةٌ من أبناء اللغة العربيّة نفسِها. وأنّه من المحال تعلّم لغةٍ ما، والادعاء أنّنا أصبحْنا قادرين على أنْ نكونَ كتّاباً وباحثين في أسرار لغتها وثقافتها. كما أنّه من العجب أنْ نرى رجلاً عربيّاً، مهما بلغ في العلم والمعرفة، مسموعَ الكلمة في آداب اللغةِ الفرنسيّة أو الإنكليزيّة وخصائصها الذاتيّة. فلماذا يُصبح الجائزُ ممكناً في ثقافتنا وحدَها، من دون سائر الثقافات البشريّة؟

اتخذ أصحابُ هذا الرأي موقفاً معتدلاً، ودعوا إلى التروّي وعدم الاستمرار في إساءة الظنّ بجميع المستشرقين، وأخْذِ البريء بذنب الجاني، خاصة وأنّ فريقاً من كبار علماء الغرب ومفكّريهم قدّموا دراساتٍ قيّمةً، شرّفتْ أعمالَهم، وخلّدتْ أسماءَهم، وسجّلتْ للعنصر العربي ودينه الحنيف، عظمتَه وجلالَه، وبتعبيرِ آخر إنّ طائفةً معتدلةً منهم، وإنْ كانتْ قليلةَ العددِ، إزاء الكثرةِ المغرضة، خلُصَتْ في دراستها العلميّة، ونظرتْ إلى الأدب العربي، والتاريخ الإسلامي وعلومه المختلفة، نظرةً نقديّةً مجرّدة، جعلتْ الدكتور زكي مبارك يرى أنّه من الضروري الرجوعُ إلى أبحاث المستشرقين، الذين

سبقوا كتّابنا بنحو ثلاثة قرون، وأنْ ننتفعَ بجليلِ أعمالهم، ونأخذَ بجيد مؤلفاتهم ـ المبوّبة والمفهرسة ـ ويَعتقد أنّ الخدمةَ الحسنة التي أداها المستشرقون، هي في نشْر الآثار العربيّة والإسلاميّة في الأقطار الأوروبيّة والبلاد الأمريكيّة، في زمن كان العرب والمسلمون في غفلة من تراثهم، وفي حال جعلهم يتركون الأجانب يتصرّفون في تراثهم، من دون أن يتيه عن سيئاتهم، أو أن تعميه جدّيةُ أبحاثهم عن التهوين من أغلاطهم، وعدم ملاحقة نواقصهم.

إنّ من المغالطة اتهام الاستشراق بالارتباط بالمخططات السياسيّة والاقتصاديّة للاستعمار، بل إنّ من الصحيح أنّ بعضَ المستشرقين كانوا عملاء للاستعمار وأدواتٍ له، نذكرُ من بينهم القناصلة والسفراء والتجار والعسكريّين والمبشّرين والتقنيّين... وأنّ بعضهم عرفوا كيف يميّزون بين اهتماماتهم العلميّة، وبين الأهداف والغايات السياسيّة لبلدانهم. فالمستشرق أدوارد براون قضى حياته وهو يناضل من أجل استقلال فارس وحريّتها، والمستشرق لويس ماسينيون ١٨٨٣ ـ ١٩٦٢ ضربه الفاشيّون الفرنسيّون ورجالُ البوليس لأنه أراد أن يفي بالوعد، الذي قطعَه تجاه العالم العربي، علماً أنّه أصبح عام ١٩١٧ تحت تصرّفِ وزارةِ الخارجيّة

الفرنسيّة، كمستشار للشؤون الشرقيّة منها، وكضابط ألحق بمكتبِ المندوبِ السامي الفرنسي في سورية ولبنان. وأنّ العنصرَ السياسي والاستعماري ليس غائباً عنه، وبخاصةٍ عندما دخل فلسطين في العام نفسه، تحت قيادة الجنرال اللنبي، الذي صرّح آنذاك: «اليوم انتهتْ الحروبُ الصليبيّة»، وكُلّف عام ١٩١٩ بمهمة الاستقصاء عن الدستور السوري.

وقد عُرف عن ماسينيون أنّه حضرَ دروساً في الجامع الأزهر، ودُعي إلى التدريس في الجامعة المصريّة، وألقى فيها أربعين محاضرة باللغة العربيّة، اهتمّ فيها بالتصوّف المتطرّف، وشجّع على ممارسته. وكان طه حسين ممّنْ تأثّر به كثيراً، ويُعتبر كتابُه «مستقبل الثقافة في مصر»، دليلاً على مسوّغاته النظريّة والفكريّة، التي دعا فيها إلى القوميّة المصريّة، وسلخْ مصر عن عروبتها، التي أجّجت صراعاً فكريّاً حادّاً، وحملةً كبيرةً بينه وبين المفكّر القومي العربي ساطع الحصري.

وكذلك المستشرق ليون كايتاني الذي أصبح مدعاةً للسخرية والهزء في إيطاليا، ولُقّبَ بالتركي لأنّه عارض احتلال ليبيا، إضافة إلى العديد من أمثال هؤلاء المستشرقين كسلفستير دي ساسي المتوفى عام ١٨٣٨

والذي أصبح إمام المستشرقين في عصره، وانصبّتْ جهودُه العلميّة على الدراساتِ العربيّة، في النحو والأدب ـ شعراً ونثراً ـ ولم يُعرفْ عنه دراساتٌ في الإسلام، وأصبحتْ اللغاتُ الشرقيةُ في عهده الأنموذج الأمثل لمؤسسة الاستشراق العلميّة والعلمانيّة، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربيّة، وكعبةً يؤمّها العلماءُ والطلابُ، ليتعلموا من علومه[1]، وينهلوا من ينبوعه الفيّاض، بَيْد أنّه كبقيّة المستشرقين شغل من عام ١٨٠٥ منصبَ المستشرقِ المقيم في وزارة الخارجيّة الفرنسيّة، وهو نفسُه الذي ترجَمَ البيانَ الفرنسي الموجّه للجزائريّين، وكمكسيم رودنسون المعروف بصداقته للعرب، والمتعاطف مع قضايا الوطن العربي وحركته التحرريّة، لكنه لا يستطيع استئصالَ ذاته من جذوره اليهوديّة، ويقفُ إلى جانب القضيّة الفلسطينيّة، بل نراه يضعُ حُججاً دفاعيّةً لصالح وجود الدولة العبريّة[2].

ساهم الاستشراقُ في استكشاف الحضارات

---

(١) كتاب الأمة: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، بقلم د. محمود حمدي زقزوق، قطر ١٩٨٣ ص٣٩.

(٢) د. صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص ص٩٨ ـ ١٠٣.

الشرقيّة، وبرز نتاجُه في تبْيان حجْم هذه الحضارات، وغنى ثروتها الفكريّة، وقيمتها في التاريخ العام للبشريّة. وهو نفسُه الاستشراق الأوروبي الذي أخذَ المبادرةَ في العصور الحديثة لدراسة تاريخنا الخاص، ولربما كنّا عاجزين عن القول اليوم نصف ما قاله روّادُه، لأننا لم نكنْ نمتلكُ الميزةَ التي تخوّلنا الاهتمامَ بتاريخِ شعوبنا، وتقديم البحوث العلميّة المسؤولة.

الموقف العربي المؤيّد للاستشراق:

هذه الرؤيةُ الإيجابيّة، المؤيّدةُ والداعمة لحركةِ الاستشراق وأعماله، نراها واضحةً عند بعض كتّابنا المحدثين، الذين أخذوا على عاتقهم الدفاعَ عن أغراضِ المستشرقين، وتبْيان فضلهم في حركة النهضةِ العربيّة الحديثة، وإحياء تراثها الحضاري. وكان من أبرز مؤيّدي هذه الفئة الكاتبُ والمؤلِّفُ محمد كرد علي، الذي سمح لنفسه الردَّ على شُبهات الاستشراق، وإظهار مكانتهم العلميّة والتاريخيّة، في كشف المدنيّة العربيّة، التي تجلّت عندهم في الكتبِ العديدةِ التي طبعوها. وكانت حَجَرَ الأساسِ في انبعاث العربيّة من رقدتها الطويلة، انتفعتْ البشريةُ قاطبةً بإنجازها الضخم، وبما حوته ذخائرُها العلميّة والأدبيّة من معارف. ويذكر محمد كرد

علي أنّ أوروبا طبعتْ كتبنا بالحروف العربيّة، قبل أنْ تدخل الطباعة إلى بلادنا بمائتي سنة، وأنّ منْ يتصفّح موسوعةَ الإسلام Encyclopédie de L'islam التي أصدرتها أوائل هذا القرن، مطبعةُ ليدن الهولنديّة، بلغات العالم الثلاث الإنكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة، يتّضحُ له مبلغ عناية الغربيّين بالمشرقيّات العربيّة، وتتجلّى لعينيْه قدرتُهم البحثيّة، وتفوّقهم في الاختصاصات اللغويّة والعلميّة.
ويعترفُ محمد كرد علي أنّ أمّتَنا مدينةٌ لعلماء المشرقيّاتِ من الفرنسيّين والبريطانيّين والإيطاليين... بما تفضّلوا علينا من بعثِ تراثنا، وجَمْعِ مؤلفاتنا، وحفْظِ مخطوطاتنا، ونشر أسفارنا، وبما أغدقوا على علومنا من نظرات ثاقبة، وما أضفَوا على آدابنا من بصمات، أدّت دورها الريادي في عالم المعرفة والفنون. وأكّد أنّ ما نشره أحدُهم مِن كتبٍ ورسائلَ ومقالاتٍ بالعربيّة والإنكليزيّة والألمانيّة.. لو نشره مجمع علمي في ثلاثين سنة، لعدّ ذلك من مفاخر الدهر وعجائب الدنيا[١]. وأنّ التطاول على أشخاصهم، والنيْل من سمْعة أعمالهم، بسبب هنّات وقعوا فيها، أو أخطاء ارتكبوها، لسبب أو

---

(١) محمد كرد علي: المستعربون من علماء المشرقيات، مجلة المجمع العلمي العربي سنة ٢٣ ص٣٤٩.

آخر، لا تخدم الحقيقةَ العلميّة، ولا تُفضي إلى الغاية المطلوبة، والأجدى عنده، لو التفت كتّابنا ومفكرونا إلى إرثنا الحضاري الكبير، ودرسوه وصاغوه في حلّة جديدة، وقدّموه للعالم فكراً إنسانياً، يواكب حضارة العصر، ويساهم في ورشة النهضة والتقدّم، وبعبارة أخرى يودّ محمد كرد علي لو أنّ سادتنا من علماء البلاد، وأساتذة المعاهد والدور المختلفة، أخذوا بآثار السلف، وأحيوا هذه الكتابات، بدل أنْ تنتظر في خزائن البيوتات الدينيّة ومكتبات العامّة والخاصّة، رحمةَ الغرب وعطفَهم.

لكنّ محمد كرد علي كغيره من كتّاب العرب لم ينس أنْ يُشير إلى ما اقترفته أيديهم من مساوئ، وما أنتجته كتاباتهم من مغالطات، وما أفرزته مداخلاتهم من سموم في بعض الأحيان، وأنْ يوضحَ أنّ مناهجَهم العلميّة، والطرقَ التي سلكوها، لم تخدمْ الأمانةَ العلميّة، والأصولَ البحثيّة، وأنها صبّت في خانة الدول الاستعماريّة أو في خدمة دول المستشرقين، التي انتفعت بمعارفهم، وأيّدت مزاعمَهم. واعتبر أنّ مَنْ يخرج عن مشيئة قومه ومصلحة بلده، تنبذه حكومتُه، وتعاقبه على فعلته، وتقطع عنه المساعداتِ الماديّة، وتجعله عبرةً

للآخرين. لأنّه من غير الجائزِ والمتوقّع، أنْ يخرج مستشرقٌ عن إرادةِ أمّته، وأنْ يرفضَ تعاليمَ دولته، وأنْ ينسلخَ من جلدةِ بدنه. ويكفينا نحن العرب أنْ يُقْدمَ قلّة من المستشرقين على درسِ آدابنا بأمانة وموضوعيّة، وأنْ لا يتخذوها سلماً إلى الطعن بنا وبمقدساتنا، أو ذريعة إلى اغتصابِ حقوقنا في الحياة.

وقد تحمّس للمستشرقين يوسف أسعد داغر، وأُعْجبَ بدورِهم، وبما خلّفته حركتُهم الاستشراقيّة من أعمال، وارتاحت سرائرُه لمنهج البحثِ الذي اتّبعوه، والطريقةِ العلميّة التي سلكوها، وادّعى أنّها نموذجيّةٌ في القياسِ والأداء والوسيلة، لأنّ المستشرق أخذ في بحثه بأوجه العلم ومنطقه، وجعل موضوعَه أشبهَ بموسوعة جامعة، وأنه ما تناول موضوعاً، حتى استفرغ منه مناحيَه كافة، واستظهرَ منه خوافيَّه، ولم يدعْ فيه مزيداً للآخرين، وأنّه التزم في تتبّع الحدث المضني، وتَحَمَّلَ المشقّةَ والصبرَ الطويل[1]، واستفاضَ في المعرفة العلميّة والحقيقة التاريخيّة.

---

(١) يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية، منشورات جمعية أهل القلم، لبنان جـ٢ ١٩٥٦ ص٧٧٥.

أفرد داغر صفحاتٍ عديدةً للحديث عن مدارس الاستشراق، والتيارات الخاصة لمذاهب الحركة الاستشراقيّة في الدول الأوروبيّة، وبيّن خاصيّة المدرسة بالطابع الوطني القومي، وأعلنَ أنّ هناك مدرسةً فرنسيّة وإنكليزيّة وألمانيّة. . . ، وأنّ منهجيةً علميّةً بكل مدرسة فرّقتْ بينهما، وميّزتها عن سواها، وحملتْ في مجملها طابعاً خُلُقياً، «طبعَ شعباً محدّداً في الزمان والمكان والعرق والعنصر»[1]، وأشار إلى أنّ لكل مدرسة مجالاً علميّاً، اقتصر عليه نشاطُها العلمي، فرعتْه بعنايتها، وصقلتْه درساً وتمحيصاً، وأمعنَتْ في تغطيةِ المعلومات الجانبيّة كافة، بعد أن فنّدت مناهج بحثه، وميادين نشاطه ومميّزات أصحابه. وقد حدّد خصائص مدارس الاستشراق، فبيّن أنّها علميّةٌ مطلقة، التزمتْ قواعدَ نقديّة وأصولاً تحليليّة، من دون أن تعرفَ عنصرَ المحاباة، أو عاملَ المراعاة والأثرّة الذاتيّة. . . فعلى سبيل المثال تحدّث عن المدرسة الفرنسيّة فرآها تتميّزُ بوضوح الخطاب، وجلاء التعبير، ودقّة البحث، وزَعَمَ أنّ صاحبها يعطيك عن موضوع حضارةِ الشرق المختلفة

---

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق ص٢٢١.

عامّة، وحاضرةِ الهلال الخصيب خاصّةً، صورةً صادقةً، في عبارة واضحة، لا يواجهها لبْسٌ ولا يكتنفها غموض. وتحدّثَ عن المدرسة الإنكليزيّة فرآها تتّفقُ مع صفات الإنكليزي، وتنضح بخصال مناقبيّةِ أخلاقه، وصفاءِ روحه، وتتميّزُ بدأبه على عملِه، وصبْرِه في أبحاثه، وجلده في تحمّل الصعاب...»[1].

أمّا الدكتور عبد الرحمن البدوي فقد وقف إلى جانب الاستشراق، وأيّد أعمال أصحابه، ودعم توجّهاتهم، واعترف بريادتهم، وأثنى على أبحاثهم، وأطرى مسوّغاتهم العلميّة ومبادراتهم الموسوعيّة، وأكد إسهامَ نتاجِهم الفكري في تطوّر الدراسات العربيّة والإسلاميّة. قال في مناسبة وفاة لويس ماسينيون، الذي كما أشرنا آنفاً، يُعدّ عند كثير من النقّاد المحدثين، أحَدَ أبرزِ المراجع في التصوّف الإسلامي: «إنّ خسارةَ الدراسات الإسلاميّة بوفاة المستشرق ماسينيون كبيرةٌ، لا تعادلُها خسارةٌ، لدرايته التامة بالفقه الإسلامي والنصوص الدينيّة، ولفضله العظيم في تفسير نشأة التصوّف الإسلامي وتطوّره، تفسيراً مستمدّاً من الأصول

---

(١) المصدر نفسه ص٢٢٢.

الإسلاميّة، ومن الكتاب الكريم والسنّة المطهّرة.

هذا الموقف المؤيّد، نراه بوضوح في تمجيده لجولدتسهير[١]، وتقليده سدّةَ رئاسة البحث الديني والروحي، واعتباره نعمةً إلهيّةً للعرب والمسلمين، وبخاصةٍ عندما زعم أنّ جولدتسهير غيرُ معني بشؤون الشرق المعاصرة، ولا بمسائله الحيّة التي تضطرب فيه ـ السياسة الدينيّة والثقافيّة والاقتصاديّة ـ وأنه يختلف عن غالبيّة كبار المستشرقين في القرن العشرين، إنْ في مادة البحث أو في منهج الشعر الجاهلي وصحّته، وأظهر أهميّة مشاركة المستشرقين في هذا الميدان الأدبي، وإسهامهم الفعلي في تبْيان جدليّته العلميّة، وأعلن أنّ الدكتور طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» أو في رديفه «الأدب الجاهلي» الذي أثار ضجةً وجدلاً كبيراً، لم يكنْ أوّلَ باحث في العصر الحديث يتحدّثُ عن صحّةِ الشعر القديم وقضيّةِ الانتحال، بل كان متأخراً، ويأتي على رأس الباحثين في اللّغات السريانيّة والعربيّة والفارسيّة المستشرق الألماني ثيودور نولدكه ١٨٣٦ ـ

---

(١) درس جولد تسهير: الشريعة الإسلامية في الأزهر، وتظاهر بالإسلام، وتبحر في اللغة العربية، وتوكّل بمهمة سرية في الحركة الصهيونية.

١٩٢٠ الذي استعان بنتائج البحوثِ الساميّة، وما كشفتْ النقوشُ الحميريّةُ والسبئيّة في اليمن الجنوبيّة، والذي استفادَ من الآداب الأخرى اليونانيّة والألمانيّة، ليسوّقَ ما توصّلَ إليه ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء، ويُضيف إلى أسباب الانتحال، الداعي الديني، الذي لم يمسه ابن سلام إلاّ مسّاً خفيفاً. وجاء بعده المستشرق المجري جولدتسهير ١٨٥٠ ـ ١٩٢١، الذي اعتبر من أشهر المستشرقين اليهود الذين تمكنوا من التربّع على عرش الاستشراق، وخصوصاً في ميدان الإسلاميّات والآداب العربيّة. وهو من محرري دائرة المعارف الإسلامية. عُرفَ بعدائه للإسلام، وادّعىٰ أنّ الإسلامَ مستمدٌّ من اليهوديّة، وزعمَ أنّ الحديث من صنّع القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وأنّ أحكامَ الشريعة لم تكنْ معروفةً لجمهور المسلمين في زمن صدر الإسلام، وأنّ الجهلَ بها وبتاريخ الرسول كان لاصقاً بكبار الأئمة. وهو من أجل ذلك حشد رواياتٍ ساقطةً ومتهافتة، نُقلتْ معلوماتها من كتاب الحيوان للدَّميري، الذي أشار إلى أنّ أبا حنيفة لم يكنْ يَعْرفْ أسبقيّةَ معركةِ بدر على أُحُد، متجاوزاً الثوابتَ المنطقيّةَ والقواعدَ العلميّة، التي تُثبتُ أنّ أبا حنيفة من أشهر أئمة الإسلام، وأنّه من المستحيل على العقل أنْ يصدّق بأنّ هذا الإنسانَ كان جاهلاً بوقائع

سيرةِ الرسول ومغازيه[1]، وأنّ طالبَ العلم المبتدئ في الدراسة، لا يتمالك نفسَه عن الضحْك لسماع هذه الأكذُوبة المزعومة. وكان بالمحصّلة في طليعة مَنْ أقاموا الجامعة العبريّة عام ١٩١٩ في فلسطين المحتلّة، كدعامة أولى في الغزو الصهيوني الاستيطاني، وقد استطاع أنْ يروّج لكتبه، ولا يزال يُحظى بتقدير المستشرقين عامة واليهود خاصة، الذين أقْبلوا على الاستشراق لأسباب دينيّة وسياسيّة. دينية ظهرت من خلال إضعاف الإسلام، والتشكيك في قيمه، وإثبات فضل اليهوديّة عليه ـ لأنها حسب زعمهم هي مصدرُ الإسلام ـ، وسياسيّة لأنّها تعمل في خدمة الفكرة الصهيونيّة والدولة اليهوديّة.

ومن ثم جاء المستشرق البريطاني دافيد صموئيل مرجليوث[2] ١٨٥٨ ـ ١٩٤٠ أستاذ الدراسات الشرقيّة في جامعة أكسفورد ـ لندن ـ ورئيس قسم اللغة العربيّة فيها، كان عضواً في المجمع اللغوي المصري والمجمع العلمي

---

(١) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص٤٥.

(٢) عُرف مرجليوث بدراساته عن الإسلام، وله كتاب: «محمد ونشأة الإسلام»، وكتاب «الإسلام والعلاقات بين العرب واليهود».

العربي في دمشق، ومن محرّري دائرة المعارف الإسلامية.

استغلّ النقوش الحميريّة والعربيّة، وركّزَ على الدافع الديني في عمليّة انتحالِ الشعر الجاهلي، والتغيير في روايته زيادة أو نقصاناً وتحريفاً، ونشَرَ معجمَ الأدباء لياقوت الحموي. وعُرف عنه أنّه من ألدّ أعداء الثقافة الإسلاميّة، وقد زعمَ أنّ أهلَ البدو اهتموا بتعلّم البلاغة والفصاحة، واتقنوا طلاقةَ اللسان، وأنّ النبي ـ حسب زعمه ـ قد مارسَ هذا النوعَ الفني، ونبغَ فيه، من دون أنْ يتأثّر مرجليوث بالثوابت والوقائع، التي تبيّن أنّ النبي لم يُعرِفْ عنه مثلُ هذا الكلام ـ الإعجاز ـ قبل النبوّة، كما أنّ العرب لم يَعْرفوا مدارسَ، يضعُ الأساتذةُ فيها قواعدَها، ويعلمون بلاغتها.

لا نُجانبُ الحقيقة إذا قلنا إنّ مرجليوث أقام ميزانَه النقدي على استنتاج وهمي، وإفراط في اختراع العللِ والأسبابِ الخياليّة، لغاياتٍ سياسيّة مكشوفة. فقد كان أستاذاً لأنطوني إيدن ـ وزير خارجيّة بريطانيا ورئيس وزرائها ـ الذي تأثّرَ بأفكاره كثيراً، وبرهن عن وفائه له من خلال سياسته العدائيّة تجاه العرب والمسلمين، والتزامه بأفكار الحركة الصهيونيّة، حيث جاءت جميع

قراراته السياسيّة، التي اتخذها في شؤون الشرق الأوسط، تخضعُ لتوصياتِ المستشرقين، وتتوافق مع الرغبات الصهيونيّة ومخططاتها التوسعيّة.

كذلك اعتبر الدكتور عبد الرحمن بدوي أنّ المستشرقين ولا سيما الألمان منهم، كانوا السباقين في موضوعةِ الشكّ في الشعر الجاهلي لأنّ أبحاثهم امتازتْ ـ حسب قوله ـ بالأسانيد التاريخيّة الموثوقة، وبالمقارنة في تاريخ أوّليّات الآداب، وبالتالي لأنّ المستشرقين الألمان اعتمدوا النظرةَ العلميّة في دراساتهم، وارتكزوا على منطلقاتٍ أكاديميّة، تمنّى كاتبنا أنْ تُعتمد في حالة تناوُلِ بحوث الحضارة العربيّة، لإظهار الصحيح من المدسوس، واعتماد الموثوق، وغربلة المنحول.

ولعلّ الدكتور فيليب حتي[١] يعدّ من أبرز الكتّاب العرب، الذين تعاطوا مع الدراسات الشرقيّة، وعملوا في تنشيط آفاقِها، ودفْع مؤسساتها، وبخاصةٍ في الولايات المتحدة الأميركيّة. أليس هو القائلُ في مقدّمة بحثٍ له

---

(١) فيليب حتي: لبناني تأمرك وأصبح أستاذاً بقسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون. وكان مستشاراً غير رسمي لوزارة الخارجية الأميركية في شؤون الشرق الأوسط.

حولَ تاريخِ دراسة المشرقيّات في أوروبة، إنّ أهمّ الأشياء التي دفعته إلى الاستزادة من التحصيل بالدراسات الشرقية، هو عمل هؤلاء المستشرقين، الذين وقفوا أنفسهم على دراسة الشرق ولغته وتاريخه وسائر أحواله[1].

أثنى فيليب حتي على جهودهم، وأيّد مسعاهم، وقال معترفاً بفضلهم: «قَلَّ مِنْ أبناء العربيّة مَنْ يقدّرون جهودَ المستشرقين، وفضْلَهم على آدابِ اللغةِ وتاريخها حقّ قدرها، ويُدركون أهميّة خدماتهم للعلوم الشرقيّة عموماً والإسلاميّة خصوصاً»[2].

تظاهرَ بالدفاع عن القضايا العربيّة في أميركا، وانتقص من دور الإسلام في بناء الثقافة الإنسانيّة، وكره أن يُنسبَ للمسلمين أيّ دورٍ أو فضلٍ في بناء الحضارة العالمية، وادّعى أنّ النهضةَ الأدبيّةَ الحديثة في لبنان، هي من نصيبِ نصارى لبنان، الذين تعلّموا ـ حسب زعمه ـ على يد المبشّرين الأجانب، ومن ثقافة المستشرقين الأميركيّين.

ولعلّ كتابَه «تاريخ العرب» خيرُ دليل على ما نقوله، لأنّه مليءٌ بالطعْنِ في الإسلام ونبيّه، تطفو على

---

(١) د. فيليب حتي: مجلة الهلال عدد ٣٣ ص١٧٤.

(٢) د. فيليب حتي: مجلة الهلال عدد ٣٣ ص١٧٥.

موضوعاته روحُ الحقدِ والكراهيةِ، وتنتابُ أوراقُ صفحاته المزاعمَ الباطلةَ والسمومَ القاتلة.

أبعادُ الموقف العربي من الاستشراق وأهدافه:

اتّضح في هذه الدراسة مواقفُ كتّابِ العرب من حركة الاستشراق، وبيّنا الدوافع الأساسية لاتجاهاتهم، ونعتقدُ أنّ المنطلقات التي قسمتْ وجهات نظرهم، تعود عند كلٍ من أصحاب الموقف المؤيّد للاستشراق والمعارض المهاجم له، إلى هدفيْن رئيسيْن.

الهدف الأول وعُرف عند الفريق المؤيّد والداعم للاستشراق، والذي رأى في حركته أنه عملَ على يقظة الوعي القومي العربي، وبعْثِ حركة الإحياء العلميّة والنهضة الفكريّة والأدبيّة، وأنّه أوجدَ تياراتٍ إصلاحيةً واتّجاهاتٍ عقيديةً، رسّختْ محاورَ ثقافيّة، وروابط أدبيّة، أيقظتْ الشعورَ العربي، وأعادتْ الثقةَ بالتراث والأصالة العربيّة، التي بزغتْ شمسُها يومَ أفرجَ المستشرقون عن الكنوز الثقافيّة، المغمورةِ في الأبهاء الخاصّة والمنتديات العامّة، بعد أن جمعوا مخطوطاتها الشرقيّة، ولا سيما العربيّة، وحفظوها من عاديات الأزمنة القاسية، ووضعوها في أماكن محدّدة، وبالتالي بعد أنْ فهرسوا موضوعاتِها المتنوّعة، ونشروها بأحلى حُلَلِ الإتقان

العصري والتجليد الفنيّ، وزيّلوها بالحواشي والإضافاتِ الضروريّة، والتحقيقاتِ التاريخيّة، والمعلومات السكانيّة، المتسمة بمنهجيّة علميّة.

ولعلّه من الجائز أنْ يكون هذا الفريقُ من المستشرقين قد أقبلوا على دراسة بلاد الشرق بدافع حبٌ الاطلاع على حضاراتِ الأمم وديانتها، لأنّهم كانوا أقلَّ خطأ من غيرِهم في كلامهم على العرب، ولأنّهم لا يتعمدون الدسَّ والتحريف، كون أبحاثهم أقرب إلى الحقّ والمنطقِ السديد، الذي ربّما اضطرّ بعضهم إلى الاهتداءِ بالإسلام، والإيمان برسالته المحمديّة.

الهدف الثاني وعُرف عند الفريق المعارض للاستشراق والمعتدل، الذي رأى في بعض أبحاثهم الاستشراقيّة ثغراتٍ ونواقصَ يجبُ تلافيها، والذي أكّد أنّ كتاباتهم لا تخلو من الانفعالية الذاتيّة، والافتقار إلى الدقّة الموضوعيّة، التي أعاد الفريقُ المعتدلُ سَبَبها إلى عجمتِهم اللغويّة، وقلّةِ خبرتِهم بالأوضاع الحياتيّة العامّة، الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، وإلى عدم معرفتِهم بمذاهبِ الكلام عند العرب.

بَيْد أنّ الفريقَ المعارضَ في المقابل، لا يرى في أعمالهم سوى الدس والتحريف، نظراً للعلاقة المأذومة

تاريخياً بين الشرق والغرب، التي نعدّها حالياً حالةً مرضيّةً غير سليمة وغير صحيّةٍ، ولعلّ مقولة الدكتور رضوان السيد الذي استمزج رأيَ دارسٍ إسلامي مخضرم، وحاولَ انتزاعَ موقفٍ إيجابي عن الاستشراق، تؤكّد وجهةَ النظرِ المذكورة، وتُظهر مدى الهوّة العميقة بيْن المثقّف الشرقي والغربي، وتُبيّنُ أنّ الأفراد من المستشرقين ـ ذوي النظرة الموضوعيّة ـ هامشيّون في الاستشراق المعاصر، وهامشيّون في نطاق الثقافة الغربيّة[1]، وأنّ الدكتور عبد اللطيف الطيباوي، الذي قضى سني كهولتِه عاملاً في جامعاتِ الغرب، كان يرى أنْ لا يكتب في الإسلام غير المسلمين[2].

ويأتي كتابُ أنور الجندي «سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإنسانيّة» في طليعة الردود التي واجهتْ ادعاءات الاستشراق، وعارضتْ مزاعمَهم، وفنّدتْ ترهاتهم، وأوضحت أنّ سمومَ الاستشراق برزتْ في جوانب الضعف، التي رصّعتْها قواها الغربيّة في كتابتها عن العرب والإسلام، والتي أقحمت فيها الكثير من الشبهات والروايات الضعيفة، والنصوص المحرّفة،

---

(١)(٢) مجلة الفكر العربي: الاستشراق: التاريخ والمنهج والصورة، السنة الخامسة، العدد ٣١ كانون ثاني ـ آذار ١٩٨٣ ص١٨.

من أجل الاعتراف بقضايا هامّة، والتسليم بمنطلقاتٍ محدّدة، والإقرار بوقائع خطرة، من أهمها:

الاعتراف بأنّ فلسطين مهدُ اليهود، وأنّ آثارَهم ظاهرةٌ، وتاريخَها شاخصٌ، وحضارتَها باقيةٌ، لتأييد الدعوى الباطلة، التي حمل لواءها تيودور هرتزل ١٨٦٠ ـ ١٩٠٤ ومَنْ جاء بعده من دعاة الصهيونيّة، والإقرار بأنّ العربَ كانوا يعيشون حياةً متخلفة، في عزلة عن حضارة العالم ومكتشفاته الحديثة، وفي انقطاع علمي وأدبي، لا يعرفون الأنظمةَ المتمدنة، والقوانين الإنسانيّة الجديدة، التي توفّر الأمنَ والحريّةَ والسعادة، حتى جاءت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، فغيّرت الواقع، وأثّرت في بنيته الاجتماعيّة والوظيفيّة، وقضتْ على الظلم والفسادِ، وأقامتْ دولةَ الحريّة والمساواة، وادعى بعض مستشرقيها بأنّ الفكرَ الإسلامي مستمدٌ في بعض مقوماته من الفلسفةِ اليونانيّة والقانون الروماني، وأنّ الحضارة الإسلامية منقولةٌ عن حضارة الرومان، وأنّ الفقه الإسلامي مستمدٌ من الفقه الروماني علماً أنّ مؤتمرَ القانون المقارن المنعقد في لاهاي قد أقرّ أنّ الفقهَ الإسلامي فقهٌ مستقلٌ بذاته، وليس مستمداً من فقه آخر، وأنّ الشكّ وعدم الدقة في الحديث النبوي وصحّته، يعودُ إلى ما اعتمَدَ الاستشراق في تحقيقاته من مراجعَ ضعيفةٍ، وإلى ما استنَدَ رجالُه من

قواعدَ بالغةِ الدقةِ والانضباط، فما لم يُعهدْ عندهم في دراسة تاريخ بلادهم ومعتقداتِ ديانتهم، خلالَ القرون الميلاديّة الثلاثة الأولى، والقبول بأنّ النثرَ الفني والنحوَ والبلاغةَ تعودُ نسبتُها إلى الفرس واليونان، وبالتالي الإقرارُ بما أثاره المستشرقون من شبهات حول مواقف رجالِ العرب والإسلام وبطولاتهم التاريخيّة، وما نشروه من ادّعاءات الشعوبيّين وإذاعة اتّهاماتهم الباطنيّة، في كثير من المواد، التي تدارسوها في لغاتٍ مختلفة، والتي تُرجمَ بعضُها إلى اللغة العربيّة، كمقدّمةٍ لعمليّةِ الغزو الفكري والسياسي للعالم العربي والإسلامي، وبدايةٍ لتشييد المدارس والمعاهد والجامعات، التي أفسدتْ الحقائقَ، ورسمتْ صورةً غير صحيحة عن الواقع، هدفتْ إلى تغريب الفكر الإسلامي، وتزييفِ مفاهيمه، وجَعْله مادةً تنضحُ بالتعصّب والحقد بُغية تدمير مقوماتِ النهضة العربيّة، وهدمِ لغتها، والتشكيك بقيم الفكر الإسلامي، وتحريفِ أصوله ومقوّماته(١).

من كل ما تقدّم يمكننا القول إنّ غايةَ الاستشراق هي التقليلُ من أهميّة العرب والمسلمين في الحضارة

---

(١) أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدامة معاصرة ص٣٣.

المعاصر، وإدخالُ اليأس إلى قلوبهم، وإفهامُهم أنّهم كانوا مجرّدَ نقلةٍ، وأنّ حضارتهم العربيّة ليس لها تأثيرٌ على الحضارة الغربيّة، لأنّ العقلَ العربي متّهمٌ بالجمود والتقليد، وعاشَ عالةً على الآخرين[1]، وأنّ لغته غيرُ قادرةٍ على مسايرة التطور العلمي، وهي عالةٌ على مصطلحاتهم، وأنّ أدبه ضحلٌ ومُجْدبٌ لا غنى فيه، تأثّر بمقولاتهم التي بيّنتْ فضل سلطانهم الأدبي، وبالتالي مهّدتْ للاستعمار الثقافي في تشديد وطأته، وتضييقِ الخناق على ثقافتنا القوميّة.

وبصورة أدق إنّ اطّلاع المستشرقين على الثقافة العربيّة، وتمكّنَهم من معرفة أحوال الأمّة وعلومها اللسانيّة والطبيعيّة، وانتشارَ أعمالهم الأدبيّة والثقافيّة في بلادنا، هدفُه تحويرُ العلم وتشويه المفاهيم الإنسانيّة، وتخريبُ منطلقاتها المبدئيّة، ومغالطة الحقائق التاريخيّة، وتأويلُ نصوص التراث وتزوير مقولاته، والإتيان بدراسات متوازنة مع مصالحهم السياسيّة، تتوافق مع تصوراتهم الاقتصادية، التي تحكمها خططٌ متناسقة، ويرفدُها منطقٌ مدبّر، ويعزّزها منهجٌ بحثي وعلمي،

(١) المصدر نفسه ص٣٩.

يُحاكي العقولَ، ولا يُثيرُ الحيرةَ والشكّ. وإنّ خير ما نختمُ به بحثَنا هو قولُ علي أبو الخشبِ «أيهدموا الأمجاد، ويشوّهوا المعالم، ويحطّموا الصروح، ويشكّكوا في كلّ ما آمن به الناس، ليسهلَ بعد ذلك قيادتُهم إلى ما يريدون...»[1].

(١) صادق جلال العظم: الاستشراق والاستشراق معكوساً ص٩٩.

الباب الثاني

الاستشراق والهيمنة الثقافية والسياسية

الفصل الأول: الاستشراق ما له وما عليه.

الفصل الثاني: الدراسات الاستشراقية وأثرها على الحملة الفرنسية.

الفصل الثالث: دور الاستشراق الإنكليزي في احتلال مصر.



الفصل الأول

الاستشراق ما له وما عليه

إنَّ الدراسةَ العلميةَ لا تُجيزُ إطلاقَ الأحكام العامّة على فئة الكتّاب والمفكّرين لمجرد معرفة هويّتهم الجنسيّة وانتمائهم السياسي والفكري، بل لا بدّ من النظر إلى ما قدَّمت أعمالُ هؤلاء الكتّاب من آثار وأفعال، قبل أنْ نغدقَ عليهم المديحَ والثناء، ونفرطَ في تلقّي معلوماتهم، أو أن نلقيَ عليهم التهمَ جزافاً، ونضعَهم في خانة المغرضين، وننعتَهم بأبشع النعوت.

إنَّ الاستشراقَ كحركةٍ فكريّة واجتماعية وسياسيّة ضمّتْ كغيرها من طبقات المجتمع وفئاتهِ الكاتبَ السيئ، الذي اتصفتْ دراساتُه بالتعصّب والكراهية، والكاتبَ الجيّدَ الذي ابتعدت مفاهيمُه عن الذاتيّة الضيّقة والدس الرخيص، والذي امتازت مواقفُه بالطروح العلميّة المجرّدة والأبحاث الأكاديميّة المتخصّصة بثقافة بلاد الشرقِ وعلومها المختلفة، سواء في الدين والسياسة، أو

في الاجتماع والاقتصاد، والتي ابتعدتْ عن قواعد سلوكه وطرقِ حياته، وتباينتْ مع مقوّماته الشخصيّة الاجتماعيّة والسياسيّة، وكانتْ نمطاً جديداً، ذا خطوطٍ محدّدة، ومظاهرَ فكريّةٍ، توحّدتْ مع إرادة الأمّة، وارتبطت بمنطلقاتها التاريخيّة.

وقد أثبتتْ الدراساتُ العلميّة، أنَّ جميعَ المستشرقين، يُدركون أهميّة التباينِ الثقافي والفكري والاجتماعي بيْن واقع بلادهم، ومقوّمات ثقافتهم البيئيّة والحياتيّة، وبيْن أحوال بلاد الشرق ومتطلّباتِ الحياة العربيّة والإسلاميّة، وأنهم مطّلعون على هذا التفاوت، ولذلك نراهم يعمدون إلى تجنّبِ الوقوع في أخطاء واضحةٍ، تكشفُ عدمِ تمكّنهم من تقدير عميق لإحدى المشكلات، التي يدرسونها في بلادنا، ويتردّدون بيْن الذاتيّة والموضوعيّة، وكثيراً ما يخضعُ واحدُهم لمؤثرات ثقافته الأجنبيّة، وينساقُ لخصَال مجتمعه، وبالتالي تظهرُ انطباعاتُه جليّةً في ظواهر ذاكرته، التي اختزنتها حياتُه طيلةَ مراحل عدّة، والتي دفعتْه إلى خللٍ في الدراسة التحليليّة، رغم تمكّنه من التقاط التقنيّات الهامّة لعملية البحث، واستخدامه المناهج العلميّة الحديثة لأنَّه في المحصلة إنسانٌ يملكُ أحاسيسَ وعواطفَ، تتحكم في

مدركاته، ودوافع وأهدافاً تسيطرُ على توجهاته[1].

لقد دُرس المجتمعُ العربي والإسلامي من قبل الكثير من المستشرقين واضطلع بعضهم بمسؤولياتٍ هامّة، وخدمَ بعضُهم الآخر العلمَ والحقيقة، وكشفَ آخرون النقابَ عن أعمال بحثيّة، دفعتْ بالمعرفة العلميّة، خطواتٍ رائدةً في النهضة والتقدّم، على الرغم من مراودةِ أبحاث هؤلاء، أخطاءً منهجيّة، ومغالطات فكريّة، قلّلتْ من قيمة المعلومات التي توصّلوا إليها، وشكّكتْ في جدّية التعميمات والأحكام المتسرّعة والشاملة، والتي وصمتْ أعمالَهم، وأظهرَتْ فداحةَ الأخطاءِ المنهجيّة، التي وقعَ فيها باحثُهم، أثناء دراسته لظواهرَ مجتمعيّةٍ، غريبةٍ عن مفاهيم بلاده، ومنطلقاتِ حياته. لأننا نعتقدُ أنّه من الخطأ العودة بأسباب الاستشراق ودوافعه إلى حبّ الاستطلاع على معارف الآخرين، والمفاخرةِ في اقتحام الدروب المجهولة، واللّذّةِ في قَرْع أبواب العلم والمعرفة، لأنّ ميادينَ الاستشراق العديدة ـ التاريخيّة والثقافيّة والاقتصاديّة

---

(١) مجلة الفكر العربي المعاصر، أندريه هيكل: مات الاستشراق وحذار من الاستغراب، مركز الإنماء القومي عدد ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ١٩٨٢ ص٩٧.

وموضوعاتِهِ المتنوّعة الأدبيّة واللغويّة والدينيّة ـ تؤكد أنّ منطلقاتها لم تكنْ واحدةً، وأنها مختلفةٌ ومتناقضةٌ أحياناً، فإنْ غلبَ على دراستها السمة العلميّة، إبّان النهضة الأوروبيّة، التي قامتْ على التراث العربي وتفاسير الكتب المقدّسة، المترجمة من اللّغات الشرقيّة ـ العربيّة والفارسيّة والتركيّة ـ، وبخاصة العربيّة، التي مثّلتْ ثقافةَ العصر، بعد أنْ انتصرت على اليونانيّة القديمة واللاتينيّة الحديثة، فإنها عند معظم دول الغرب انبثقتْ من المصلحة الخاصّة، والانتفاع من ثروات الشرق، والتنافس على استعماره، وإنها اعتمدتْ على دولها الأجنبيّة، التي أحسنتْ إلى مستشرقيها، فضمَّهم رؤساؤها وملوكها إلى حاشياتهم، وانتدبوهم للعمل في السلك الدبلوماسي والوزارات المختصّة، قبل أن يتولّوا كراسيَ اللّغات الشرقيّة في كبرى جامعاتِ العالم ومعاهدها الخاصّة، لقاء جزيلِ العطاءات الماليّة، أو مقابل منحهم ألقاباً مميّزة في عضوية المجامعِ المتنوّعة العلميّة واللغويّة.

الاستشراق والمراحل التي مرَّ بها وتكوينه:

ويلاحظ أَنّ الاستشراقَ أصبحَ بعد الحروب الصليبيّة ذا صِبْغةٍ سياسيّةٍ ودينيّة، وأنّ بعضَ رجاله اهتمّوا بدراسة بلادِ الشرق وعلومه، تحت دوافع سياسيّةٍ

مشوّهة، غرضُها تكيُّف السياسة الغربيّةِ مع أوضاع الشرقيين، والاستفادةُ من ثرواتهم، ونشرُ تعاليمها الدينيّة الأجنبيّة، التي اقتصرتْ على المستشرقين الرهبان في القرن العاشر الميلادي، حيث كان العلمُ معروفا عند رجال الكهنوت، من أمثال الراهب الفرنسي جريردي أورلياك ٩٤٠ ـ ١٠٠٣م الذي أصبحَ من أوسع علماء عصره في أوروبة، ومن أعظمهم ثقافة في علوم رياضيَّات العرب وفلكهم[١]. وكذلك الكهنوتي غربرت الفرنسي الذي عُرف باسم سيلفستر الثاني من عام ٩٩٩ ـ ١٠٠٣م وأصبحَ أولَ بابا للڤاتيكان من الفرنسيّين، بعد أن أخذ من علوم المسلمين في بلاد الأندلس وقرطبة خاصّة، وكذلك المستشرق جيرارد دو أكرموني ١١١٤ ـ ١١٨٧م الإيطالي المولد، الذي أقام في طليطلة ودرس فيها العربيّة وعلومَها، واستفاد من ثقافتها، ونقلَ كتبها، التي بَلغَتْ ثمانين مؤلفاً في المنطق والرياضيات والهندسة والفلك والطب والبصريات، إلى اللغة اللاتينيّة.

ويلاحظ أنَّ شخصياتٍ أوروبيةً مستنيرة عديدة

---

(١) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مطابع الدوحة الحديثة، الكويت ١٩٨٣ ص٢٠.

اتخذتْ إزاء الإسلام مواقفَ إيجابيةً، من بينها فردريك الثاني ١١٩٤ ـ ١٢٥٠م ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا من عام ١٢١٥م، الذي كانَ واسعَ الثقافة، شجَّعَ الآدابَ والفنون والعلوم، وأنشأ دولةً حديثة في صقلية، وألمَّ بالعربيّة وعرفَ أسرارَ بلاغتها، وتحمَّسَ للفلسفة العربيّة وعلومها، التي كانتْ تدرَّسُ في قصره، وأهدى ترجماتِ الكتب العربيّة إلى جامعات بولونيا وباريس، وأسّسَ جامعة نابولي عام ١٢٢٤م، وجعل منها منارةً أكاديميّةً، نجحتْ في إدخالِ العلوم العربيّة إلى الدول الغربيّة، وتشبَّه بالعرب في لباسهم وعاداتهم، وكان نصيبُه أنْ طرده البابا جريجوري التاسع من صقلية عام ١٢٣٩م، بسبب ما كان يُبْديه من مظاهر التأييد والودِ تجاه الإسلام[١].

وقد أيقن الإنكليزي روجر بيكون ١٢١٤ ـ ١٢٩٤م ـ كَغَيْرِهِ من عقلاء أوروبة آنذاك ـ أنَّ سرَّ قوّةِ الحضارة الإسلامية، يعود إلى العلم بنوعيه الدنيوي والأخروي، وأنّ المخرج من الحروب الصليبيّة، التي أوشكت نتائجها تنذرُ بالإخفاق، هو طلبُ العلمِ والسعي وراء المعرفة،

(١) المصدر السابق ص٢٥.

في أرض الإسلام، وفي المشرق العربي وبلاد الأندلس، وأنَّ العملَ الأساسي ينبغي أن يوجّه في رفْع جهالةِ الحياة وإزاحة الظلامة عن الأمّة، وأدركَ أنّ آراء ابن رشدٍ في أصول الدين، والإيمان بوحدانيّة الله، والقضاء والقدر، قد انتشرتْ في الفكر الغربي، وسادت في أوروبة مدةً طويلة، انتصرتْ فيها على مذهب أرسطو وأقرانه، الذين كانوا يصرّون على مبدئيّة مركزيّة الأرض في النظام العالمي، ودورانِ الشمس وكواكبها الخمسة حولها، وتفهَّمَ - بيكون - موقفَ علماء الغرب، الذين تصدّوا للآراء الرشديّة، وعارضوا طروحَها وشوّهوا فلسفتَها، مثل فقيه الكنيسة الغربيّة وفيلسوف مسيحيّتها وحُجَّتها في اللاهوت، القديس توما الأكويني ١٢٢٥ - ١٢٧٤م الذي وُلد في إيطاليا، واطّلع في فرنسا على آراء ابن سينا، والغزالي وابن رشد، وظلَّتْ آراءُ علماء المسلمين بارزةً في مؤلفاته.

ولعل مكانةَ اللّغة العربيّة من الإسلام وحضارته التي دفعتْ بيكون إلى القول: «عجبْتُ ممنْ يريدُ أنْ يدرسَ الفلسفةَ وهو لا يعرفُ اللغةَ العربيّة، وربما اضطره هدف تنصير المسلمين إلى أهميّة تعلّم اللغة العربيّة، لأنّها الطريقةُ الوحيدة عل حدِّ رأيه، التي يمكن بها توسيعُ رقعة العالم الغربي، واجتذابهم إلى الدين

النصراني، وتحويل الإنسانيّة كلها إلى العقيدة الكاثوليكيّة، بدليل أنَّ مجمَّع ڤيينا الكنسي المنعقد عام ١٣١٢م الذي يُعدّ بدايةَ الاستشراق اللاهوتي، صادقَ على أفكار بيكون، وأعطى الموافقةَ على تعليم اللغةِ العربيّة في الجامعات الأوروبيّة[١].

ومنذ القرن السادس عشر للميلاد أخذ الاستشراقُ يعوِّل كثيراً على اللّغات الشرقيّة، ويهتمّ بجمعِ المخطوطات العربِيّة ونشْرها، فعملَ رجالُه في التأليف والأبحاث، في موضوعات عربيّة أو قضايا شرقيّة متنوّعة، تناولتْ شؤوناً لغويّة ومفاهيمَ أدبيةً وقواعدَ علميّةً، وأصولاً دينيّة. وعُدَّ القرن التاسع عشر والقرن العشرون عصرَ ازدهارِ الحركة الاستشراقيّة، وبخاصّة إثر إقدام حكومةِ الثورة في فرنسا على إنشاء مدرسةِ اللُّغات الشرقيّة عام ١٧٩٥م، وبعد أنْ بدأت حركةُ الاستشراقِ تأخذُ طابعاً علميّاً على يد سيلفستر دي ساسي المتوفى عام ١٨٣٨م، والذي أصبح إمام المستشرقين في عصره، ويرجعُ إليه الفضلُ في جعْلِ باريس مركزاً للدراسات العربيّة، وكعبةً للعلم والمعرفة. أمّها الطلابُ والعلماء،

---

(١) د. شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٥ ص٦.

وتخرّج على يديْه صفوةٌ من المستشرقين، من جنسيّات متعدّدة، تعلّموا من معارفه الواسعة، ونهلوا من علومه الغزيرة، وارتشفوا من بحور ثقافته الصافية، التي تبلورتْ في جهوده العلميّة، ودراساته الفكريّة، في الأدب والنحو، شعراً ونثراً، ولم يُعرفْ عنه دراساتٌ في الإسلام، وأصبحت مدرسةُ اللغات في عهده، نموذجَ المؤسسةِ الاستشراقية في الميدان العلمي والعلماني، لكنّ مواقفَ دي ساسي سرعان ما تبدّلتْ، بعد أنْ شغلَ منصبَ المستشرقِ المقيم في وزارة الخارجيةِ الفرنسية عام ١٨٠٥، وأصبح يُستشارُ في جميع المسائل والأمور المتعلقة بالشرق، وترجم البيان الموجّه للجزائريين عندما غزا الفرنسيون البلاد عام ١٨٣٠.

وهكذا تبدَّلتْ مهامُ الحركة الإستشراقية ـ العلميّة والبحثيّة والتأليفيّة ـ وصارتْ أدواتٍ طيّعةً في يد الزعامةِ السياسيّة، ومصالحها الأوروبيّة، واستخدمتْ في مشاريعَ إنمائيّةٍ مشبوهةٍ، وأهدافٍ ثقافيّة مغرضة. وأصبح المستشرقُ منتدباً وسفيراً في البلاد العربيّة والإسلاميّة، وبات بمثابة عين ساهرة على ما تموج به البلادُ من صراعات وأفكار، وتميَّزَتْ مهمّتُه في الاطلاع عن كثبٌ، على أحوال شعوب المنطقة ـ الاجتماعية والفكرية ـ،

وممارسة الضغط والتوجيه على الاتجاهات السائدة، بُغية السيطرة على مقدرات الأمة، واستغلال خيرات البلاد.

وهنا يجب أن نُميِّزَ بيْن تياريْن للمستشرقين، تيار المستشرقين في الدول الكبيرة، كفرنسا وإنكلترا ذات المستعمرات والمؤسسات الاحتكاريَّة، وتيار المستشرقين في الدول المستقلة كألمانيا والدانمرك، حيث ظهر أنّ معظمَ كتابات المستشرقين في الدول المستعمرَة ذات أهدافٍ مشبوهة وأحكام مسبقة، لم تلتزمْ بالأمانة العملية والمنهج الأكاديمي، في البحوث الثقافية والدينيّة، وأنَّ نفراً قليلاً من التيار الآخر جانبَ الحقيقةَ، وابتعدَ عن الدراسة الموضوعيّة والمعرفة البحثيّة، ويجب أنْ لا نغفلَ حقَّ بعضِ المستشرقين وريادتهم في ولوج ميادينِ العلم والمعرفة، ممّنْ برعوا في وضع القواميس الضخمةِ للّغة العربيّة، ونشروا المعاجمَ الضخمةَ، التي بُوِّبَتْ وصُنّفتْ حسب أحدث الطرق العصريّة، وكتبوا المصنّفاتِ والمؤلّفات الأجنبيةَ عن البلاد الشرقية وأحوالها المختلفة، في شتى مضامين الحياة، من منطلقٍ ذاتي وحماسٍ خاص، ورغبةٍ صادقة في حبِّ العلم وتقصّي المعرفة، وفَضْلهم في ذلك لا يُنكر، لأننا لا نريدُ أنْ نتعسّفَ على المستشرقين وأعمالهم، ولا نبغي الافتراءَ على حركتهم،

بل نُريدُ توخّي الحقيقة، والتعرّفَ على مالهم من إيجابيّات تُذكر لهم على مختلف الميادين والأصعدة، وما لهم من سلبيّات تسجّل عليهم، سواءٌ في تآليفهم الفكريّة، وفي مواقفهم الشخصيّة، أو في تدريسهم الجامعي وترجمتهم التراث من العربيّة إلى الأوروبيّة، حيث بلغ ما ألّفوه في قرن ونصف القرن منذ أوائل التاسع عشر حتى منتصف العشرين ستّين ألف كتاب[1]، إنصافاً للحق والتزاماً بوضع الأمور في نصابها، واعتماداً على قول ربِّ العالمين: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2]. لأنَّ الثناء المطلقَ، أو التحاملَ المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخيّة والمنهج التحليلي العملي، الذي يتعارضُ مع دراسات معظم المستشرقين وأبحاثِهم، وجاء مخالفاً لمنطلقاتهم النظرية وقواعدِهم المبدئية، بغض النظر إنْ أصاب المستشرقون أو أخطأوا، لأنَّ المستشرق في رأيي، مهما كان مستقلاً، وبعيداً عن الذاتيّة والمصلحة الضيّقة، فإنّه لن يتمكن من معرفة اللّغة العربيّة وعلومها، ولا يقدر أنْ

---

(١) إدوار سعيد: الاستشراق، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨١ ص٢٠٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨.

يمتلك الحسَّ اللّغوي للعالِم العربي، الذي فُطر على اللّغة العربيّة، وجُبل من نصوص فقهها، وعاش في علوم تصاريفها وفصاحةِ خطابها، في مكامن نفسه وجوارح حياته.

فمثلاً المستشرق الذي يدرسُ الأدبَ العربي، ويجيدُ تفسيرَه اللّغوي والبلاغي، ويطّلع على أحوال عصوره التاريخيّة والثقافيّة، لا يستطيعُ أنْ يتلمسَ الخاطرة الوجدانيّة والنفحاتِ الشخصيّة المرهفة، والمقاييسَ النقديّةَ التاريخيّةَ والنفسيّة والاجتماعيّة، لأنه يَفتقد إلى الذائقة الأدبيّة، التي يوفّرها عنصرُ الوراثة الاجتماعية والبيئية عند الباحث العربي. فالمستشرق الفرنسي المعاصر جاك بيرك، الذي أعلن عام ١٩٧٥م أنَّ زمنَ الاستشراق انتهى، وقرّرَ أن يطلق على أي مؤتمر للاستشراق مؤتمر العلوم الإنسانية، صَوَّر ثورة لبنان عام ١٩٥٨م طائفياً، واعتبرها محصلةً طبيعية لتركيبةِ فرز البلد السكاني المتنوّع دينياً وعشائرياً، من دون أنْ يلحظَ أنَّ هذه الثورة كانت نتيجة انفجار جماهير شعبيّةٍ واسعة، وضد نمط علاقات سائدة، واتجاه سياسي، حاول ربط لبنان بأحلاف غربيّة مشبوهة. والمستشرق الألماني كارل بروكلمان ١٨٦٨ ـ ١٩٥٦، ادّعى أنّ ابن بادية الجاهلية كان فرديَّ النزعة، ومفرطاً في الأنانيّة، وزعم أقاويلَ ملفّقةً، سمحت للعربي الداخل في الإسلام، أن يقولَ

في دعائه: «اللهمّ ارحمني ومحمداً ولا ترحمْ معنا أحداً»[1]، وأكد أنّ النبيَّ ﷺ أمرَ الصحابةَ المؤمنين مِمَّن عَرفوا طعمَ الفاقةِ، واستثارتْهم الرغبةُ في نيْل الغنائم، أنْ يشنّوا غزواتهم على إحدى القبائل، المارة بالمدينة، في شهر رجب الحرام، وأشار إلى أنّ المسلمين حقّقوا مكاسبَ عديدة، وأصابوا ثرواتٍ كبيرةً، من دُون أنْ ينتبه إلى المشاعر القبليّة والأعراف الجاهلية، أو أنْ يتأثّر بعادات عرب الجاهليّة ونظامِهم القبلي، الذي حَرَّمتْ عصبيّة الاقتتال في الأشهر الحرم الأربعة ذي العقدة وذي الحجّة ومحرم ورجب[2].

وهذا ليس غريباً عن واقع الحركةِ الاستشراقيّة وتاريخها القديمِ والحديث، حيث قصدَ بعضُ المستشرقين من مراجعةِ التراث الشرقي إلى غائيّةٍ محدّدة، وخلفيّةٍ ذهنيّة مدبّرة، عملتْ على إبراز جوانبِ الضعف في الأمّة، والأخطاء التي اعتورتْ مسيرتها التاريخيّة والحضاريّة، وغضّتْ الطرفَ عن جوانبِ

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط التاسعة ١٩٨١ ص١٨.

(٢) المصدر نفسه ص٤٩.

العظمة والقُوة فيها، وقلَّلتْ من فعاليّة أثرها في مسيرةِ الحياة العامّة، ونهضة الإنسان ورُقيّه. فأتتْ كتاباتُها متعارضةً مع وقائع البلادِ المتقدّمة، وجعلتْ من مؤلفاتها المشبوهةِ ورواياتها الموضوعة، تتصدّرُ ريادةَ النهضة الجديدة، وحركةِ الانبعاث الحديثة، معلنةً عدّة نقاطٍ خطيرة، سرتْ في العالم عامّة، وأوروبة وأميركا خاصّة، سريانَ النار في الهشيم، من أبرزها القولُ إنَّ فلسطينَ مهدُ اليهوديةِ، وإنَّ حضارتها تعودُ إلى أجداد اليهود، الذين غرسوا دعوتَهم الباطلةَ في أرضِ الميعاد، التي رعاها تيودور هرتزل ١٨٦٠ ـ ١٩٠٤ ومَنْ جاء بعدَه من غلاةِ الصهيونيّة، وإنَّ العربَ عاشوا في انحطاطٍ عميق وسُباتٍ طويل، حتى جاء نابليون وحملتُه النهضويّة، التي فَجَّرَتْ ينابيعَ اليقظةِ، وأرستْ معالمَ الرقيِّ والتقدم، والقولُ أيضاً إنّ الفكرَ الإسلامي مستمدٌ من الفلسفةِ اليونانيّة والقانون الروماني، وإنّ البطولاتِ العربيّة والإسلامية غُمِزَ من قناتها، وأُثيرَ من حولها اتهامات باطلةٌ، ولُفِّقَ حول موافقها التاريخيّة قصصٌ ورواياتٌ، هي أقربُ من الترّهات والأساطير، التي وردتْ في دوائر أبحاثهم، ومصنَّفات معارفهم، التي عُدّتْ توطئةً لعمليةِ الغزو الفكري والسياسي للمنطقة الشرقيّة والعربيّة، ولتوجيه المناهج المدرسيّة، والدراسات

الجامعيّة، وفقَ الهيمنة الثقافيّة والولاء الأجنبي.

ولعلَّ خيرَ مثل نضربُه في هذا الصدد، هو دائرةُ المعارف الإسلاميّة، التي تُعدُّ مرجعاً أساسياً لا غنى عنه لكلّ باحث، والتي قَدَّمَت موضوعاتٍ إسلاميةً كثيرةً، من وجهة نظر غربيّة، اختلفتْ تماماً عن مفاهيم الإسلام، وانحرفتْ عن جادة العلميّة والموضوعيّة الأكاديميّة، وكانت مادةً سهلة في معاهدِ البحوث الشرقيّة، وفي أيدي المستعمرين الأجانب والأساتذة العرب والمسلمين، ممّنْ تتلمذ على أيديهم، وارتشف من منهل كؤوسهم، في الجامعات العربيّة والأوروبيّة والأميركيّة، وأُخِذَ عنهم طرقَ تفكيرهم، ومناهجَ أبحاثهم، التي أغنتْ العقلَ العربيَ الإسلامي المعاصر، كونُها عالجتْ جميعَ الموضوعات المتعلّقة بالعرب والإسلام. وقد نستدلُّ على كبر دورِها من تلك البحوث المختلفة؛ التي قام بها كتّابُ العرب، الذين أشادوا بأهميتها، واعترفوا بأثرها ـ الإنجاز ـ قال عنها محمد كرد علي: «تصفَّحْنا هذه المعلمةَ ورجعْنا إليها غير مرة، فكنّا نعجبُ ببُحوثها، ونستفيدُ من علم كاتبيها وتمحيصهم»[1]، واعتمدها الآخرون كمراجعَ

---

(١) أحمد سمايلوفتش: «فلسفة الاستشراق» ص٥٧١.

في الكتابة البحثية، وصُنِّف كثيرٌ من المشتغلين بعلومها العربيّة والإسلاميّة، ممّن عملَ على ضرب اللّغةِ العربيّة وتشويه الإسلام، في خانة المسيئين، بدافعِ النزعةِ الدينيّة والعنصريّة السياسيّة والمصلحة الاستعماريّة، التي رفضها بعضُ المستشرقين، ممّنْ خَدَمَ العربيّة والإسلام، ونجحَ في نقل المعلومات العربيّة والإسلاميّة إلى شعوبه الأجنبيّة، التي لم تستطعْ أن تقضيَ على الصورة المشوّهة للعرب والإسلام، أو تنسخَ الصورةَ السيّئةَ التي رسّختْها الكتاباتُ الاستشراقيّة في القرون الوسطى والتي لا تزال عالقةً حتى اليوم، لأنها انطلقتْ من نظرةٍ مبدئيةٍ متعاليةٍ، ورأيٍ عنصريٍ متغطرس، قسّم شعوبَ العالم إلى أجناس جيّدة كالشعوب الآريّة، وأجناسٍ سيّئةٍ أو منحطّةٍ كالشعوب السامية التي وَصَفها إرنست رينان ١٨٢٣ - ١٨٩٢ بالسطحيّة، وضحالةِ التفكير في المعتقدِ والفلسفة، عندما هاجم الجنسَ العربي، واعتبر العقليّةَ العربيّةَ لا تتلاءَم مع الفكر العلمي والفلسفي، وادعى أنَّ التراثَ العربيَ الإسلاميَ إنّما هو نتاجُ شعوبٍ وأجناسٍ غير عربيّة[1]، وأنّ تاريخ الحضارةِ الإنسانيّة ليس إلاَّ

---

(١) محمد عمارة: «مسلمون ثوار» المؤسسة العربية، بيروت ١٩٧٤ ص١٧٢.

تاريخَ الغرب، ورأى أنَّ الإنتاجَ الفعلي الذي بدأ مع ما يُسمّى المعجزة اليونانيّة، قد نَضُجَ دورُه في النهضة الأوروبيّة، في حين أنَّ الحضارةَ العربيةَ الإسلامية هي فترةُ ركودٍ، تحقَّقَ فيها النقلُ والمحافظة على النتاج الفعلي اليوناني(١)، وأعلن أنّ الإسلامَ كان حرباً على حريّة الفكر، وأنّه كبت جميعَ الحركات العلميّة(٢)، حتى أنّه اعتبرَ العنصرَ السامي مشكلاً منحطّاً، ذات تركيبٍ أدنى من الطبيعةِ الإنسانيّةِ، وأنّه صرّح في جامعة السوربون عام ١٨٨٣ بأنّ كلَّ إنسانٍ على شيء من العلم والوعي يُدركُ أنَّ دونيّة المسلمين الراهنة، وانحطاطً الدولة، والانعدامَ الثقافي لدى الأعراق، ناجمةٌ عن تلقّي ثقافتِها وتربيتها من الدين الإسلامي(٣).

هذه المفاهيمُ الخاطئةُ التي طبعَتْ مسيرةَ الاستشراق، تغيَّرتْ نسبياً بعد أنْ تخلّص روادُها على حدٍّ كبير من سيطرة اللاهوت، وانصرفوا إلى الدراسة في

(١) محمد ياسين عريبي: مجلة رسالة الجهاد، مالطا، العدد ٦٧ حزيران ١٩٨٨ ص٦٢.

(٢) عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت ط السابعة ١٩٦٦ ص٢٥٨.

(٣) صالح زهر الدين: الإسلامي والاستشراق ص٩٧.

اللّغات الشرقيّة وعقائد شعوبها، وإنْ كنّا لا نستطيعُ تعميمَ نجاحِ هذه النزعةِ التحرريّة، ولا مدى معرفةِ أثرها من التعصب الديني، فإنَّه من الواضح أنَّ كتاباتِ الاستشراق قد بقيتْ متناولةً من قبل كتّابٍ خدموا العلمَ والمعرفة، وأنصفوا العربَ والإسلام، وكتّابٍ أعماهم الحقدُ العنصريّ والتزمّتُ الديني، فزوّروا حقائقَ التاريخ وأساءوا للإنسانية.

الاستشراقُ المنصف بين الموقف والمضمون:

إنّنا نحترمُ عطاءاتِ المستشرقين المُنْصفين، الذين انكبّوا على الدراسات الشرقيّة بتجرّد وموضوعيّة، ونقدِّرُ مواقفَهم الواضحةَ، ونثمّنُ دورَهم في إثبات الوقائعِ الحقيقيّة، وتأكيدِ منطلقات العدل والمساواة المبدئيّة، التي لا يشوبُها الضعفُ ولا يعتورُها اللّبسُ والشكُّ، وبعبارةٍ أدق أنَّه بالرغم من النقد الموجّه إلى المستشرقين بشكل عام، فإنّنا لا نستطيعُ أنْ نتغافلَ عن أمانةِ بعضهم في الكتابةِ الموضوعية، وأنْ نجرِّدَ أعمالَهم من الدقّة العلميّة والغاية المعرفيّة، ويجبُ أنْ لا ننكرَ صنيعَهم الإيجابي في ما قدَّموه من أبحاثٍ أدبيّة ومفاهيمَ اجتماعيّةٍ ودراساتٍ إسلامية، أتاحتْ لنا إحياء العربيّة وبعْث تراثها، وكانتْ معلماً مميَّزاً في يقظة الأمّة ونهضةِ علومها

وتقدّمها، وبالتالي فإننا نباركُ عملَ المستشرقين الذين درسوا الدينَ الإسلامي، وعملوا بما توصّلوا إليه من بيّنات، كالمستشرق الفرنسي إِيتين دينية ١٨٦١ ـ ١٩٣٩[١] الذي درس الأديانَ السماويّة والوضعية، وأيقنَ أنّ الإسلام دينُ الحق، فشهر إسلامه، وتسمّى ناصر الدين دينية، وألّف كتاباً عن سيرة الرسول، بيَّنَ فيه تحاملَ قومهِ على الإسلام ورسوله[٢]، وأعلنَ لو كان الإسلامُ معروفاً في أوروبا لنالَ من العطف والتأييد أكثر من أيِّ دينٍ آخر، لأنّه يلائمُ جميعَ ميولِ معتنقيه على اختلاف مشاربهم، ويَهدي علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم[٣].

قرأ «دينية» ما كتبه المستشرقون عن الرسولِ والإسلام، وما لفّقوا حول العربِ من روايات وأقاصيصَ، فدحض مزاعمَهم، وجنّد مؤلفاته في الدفاع عن الإسلام والعروبة، وأشاد بالمجاهدين الذين استشهدوا في المعارك الحربيّة، وأشار إلى أنَّ معظمَ

---

(١) إيتين دينييه كاتب فرنسي، من كبار رجال الفن والتصوير، درس الدين الإسلامي في الجزائر وآمنَ بعقيدته وشهر إسلامه.

(٢) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص٢٥.

(٣) محمد عزت الطهطاوي: التبشير والاستشراق: أحقاد وحملات ص٦٧.

دراسات المستشرقين لا يُعتدُّ بها، وتفتقر إلى الدقّة العلميّة والحقيقة التاريخيّة، وأخذ موقفاً عارضَ فيه الحركةَ الاستشراقيّة، وانتقد أعمالَها، وبيّنَ أنّه من المتعذَّر أن يتجرّدَ المستشرقون من عواطفهم الخاصّة ونزعاتهم الضيّقة، رُغم انتهاجهم أساليبِ النقد الحديثة، وقوانينِ البحث العلميّة. وضَرَبَ أمثلةً على تخبّطهم الفكري وتناقضهم المعرفي، فنقضَ مزاعمَهم، وقوَّضَ من أثر الهالة التي أحاطتْ بأعمالهم، وهوَّن من الافتتان بضجيج أعلامهم، وأصدرَ بالمحصلة حكماً عامّاً بحقهم، من دون أنْ يستثني أحداً.

بيْد أننا لا نستطيعُ إلاَّ أن ننصُفَ بعضَ المستشرقين الذين دافعوا عن الحقيقة الموضوعيّة بالقول والفعل، بالنظريّة والممارسة، أمثال كاتب روسيا وأديبها الكبير تولستوي ١٨٢٨ ـ ١٩١٠ الذي انتفض على حملة الظلم والعدوان على الإسلام والعرب، وشهر سلاح العلم يردّ على الوضّاعين، وينافحُ عن دعوة الحقِ، والذي كان جزاءه أنْ ناله عقابُ البابا، الذي حرمَه من رحمة الله[١]

(١) د. شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين ص١٤.

وأن أرسلَ إليه الإمامُ محمد عبده رسالةً علّق فيها على هذا الحرمان بقوله: «فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس: إنّك لستَ من القوم الضالين، وختمها بالدعاء له، وأنْ يمدَّ اللّهُ في عمره، ويحفظَ قوّته، ويفتحَ القلوبَ لفهم قوله»[1].

وكذلك المستشرقُ الفرنسي غوستاف لوبون ١٨٤١ ـ ١٩٣١ الذي قال عنه المترجم لكتابه ـ حضارة العرب ـ في مقدمته، إنَّه يستهويك في مطالعته، فتمضي في قراءته من دون مللٍ وسأم، وأنَّه يشهدُ للحق المهيضِ، وهو تحفة أدبية وتاريخية وحضارية، تستحق أن تقتني بثقلها ذهباً[2].

إنه شهادةُ عالمٍ أنصفَ العرب، ودافعَ عنهم، أمام محكمة التاريخ، وشهرَ فضائلَ العرب، وردّ مزاعمَ المستشرقين ممَّنْ ادعوا أن الفتوحاتِ الإسلاميةَ العربيّة انتشرتْ بقوة السلاح، وأعاد ذلك إلى ما رآه أهل البلاد منْ عدلِ العرب الغالبين، وتسامُحِ دعوتهم، التي اعتنقتها فيما بعد الشعوبُ التي قهرتْ العربَ مؤخراً ـ كالترك

---

(١) محمد عبده: الأعمال الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر «دار إحياء التراث» بيروت ط الثانية ١٩٧٩ ص٥.

والمغول ـ وأعلن أنّ الأممَ لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم، وأشاد لوبون، بالرسول وقال عنه: «إنه كان شديدَ الضبط لنفسه، كثيرَ التفكير صموتاً، حازماً سليمَ الطويّة، صبوراً قادراً على احتمال المشاق، ثابتاً ليِّنَ الطبع وديعاً، وكان مقاتلاً ماهراً»[1].

تحدّث لوبون عن الفرق بين الفتح العربي والحملات الصليبيّة الأوروبيّة، فشبّه الصراعَ بنزاعٍ بين أقوامٍ من الهمج، وشعوبٍ تعدّ حضارتهم من أرقى الحضارات، التي عرفها التاريخ[2]، وأكّد أنّ المسلمين في حروبهم احتفظوا بمناقبيّة مثلى، وأخلاقٍ عالية. لم يُخضعوا الناسَ لمبادئهم بالقهر والقوّة، كما ادّعى كثيرٌ من المستشرقين، ولم يخوضوا القتالَ في بحر من دماءِ الانتقام. بل انطلقوا يجاهدون في سبيلِ الله، ويذودون عن مبادئ دعوته، التي حضّتْهم على عدم قتل الرهبانِ والنساء والأطفال والمكفوفين، ومنعتْهم من تدمير المزارع وقطع الأشجار، وانتهاكِ الحرمات، ونهبِ القرى وإشعالِ النار، كما جرت العادة عند الجيوش الرومانيّة

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص١٣.
(٢) المصدر نفسه ص٢١.

في تقدّمها وتراجعها، وأفاضتْ في عرض فكرةِ عدم إكراه الناسِ على الإسلام، وأظهرت أنَّ الدينَ انتشر بالدعوة السمحاء، تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[١] وبما لمسته الشعوب من التزام بأحكام الدين وأومره ونواهيه، وبما جسّده القادةُ من مواقف مُميّزة، لم يعْرفْ لها العالم مثيلاً في التاريخ[٢]، وأكدتْ أنَّ أوروبا التي اعتنقتْ الحضارةَ العربيةَ في عصورها الوسطى، سكنَ أبراجَها آنذاك أمراءُ أقطاعيون متوحّشون، يفخرون بعجزهم عن القراءة[٣]. في حين أنَّ العربَ قدّموا خدماتٍ إنسانيةً وعلميةً للعالم، وأنَّهم مدّنوا أوروبة ـ علماً وفناً وأخلاقاً ـ وامتلكوا في أقل من مائة عام حضارةً من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ، وأنهم حملوا أسمى الرسالات، يوم خرجوا بدينهم من الجزيرة، وعمدوا إلى أقبيةِ القصور ودهاليز الهياكل، يبحثون عن الكتبِ المطمورة، التي حالَ اليونانيون ـ الروم ـ بينها وبين روّادَ العلم من الباحثين عن الحقيقة،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٥٦.

(٢) د. جميل عبد الله محمد المصري: دواعي الفتوحات الإسلامية، دار العلم دمشق ١٩٩١ ص٤١.

(٣) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ص٥٨٥ ـ ٥٩١.

ويريدون أن يُخرجوا الناسَ من الظلمات إلى النور. الأمر الذي جعل قاضي طليطلة يقسم العالَمَ إلى قسميْن، يحتوي القسمُ الأوّل على أمم اشتهرت بالمعارف والعلوم وعلى رأسها العربُ، ويحتوي القسمَ الثاني على الأمم الأوروبيّة الجاهلة، التي تقصّفت معالمُ مدنيّتها تحت سنابك غزوات البرابرة، والتي أطلِقَ على تاريخ بلادِها الأوروبيّة اسم العصورِ المظلمة[1].

وبالتالي فقد عملَ العربُ على نشرِ العلم بيْن الناس، ورفضوا أن يبقى سرّاً من أسرار الأديرة، أو تجارةً من تجارات رجال الدين، وميزةً من خصائص بعض الملوك والأمراء، فأحلّوه منزلةً عاليةً، وقدّموه على كل شيء، حتى على العبادةِ والإيمان[2] وجعلوا الغربَ يرتشفُ من مناهلِه الأولى، التي بقيتْ آثارُها ماثلةً حتى عصرنا الحديث[3].

---

(١) د. صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص٣٨.

(٢) عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ط رابعة ١٩٨٠ ص١١.

(٣) د. عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، منشورات مكتبة الجامعة العربية، بيروت ١٩٦٦ ص٢٥٩.

وقد اعترف بفضل الحضارة العربيّة على الغرب كثيرٌ من علماء الغرب وباحثيه، وهذا ما عبّر عنه الفيلسوف الفرنسي والمصلحُ الاجتماعي والسياسي، «كوندورسيه» Condorcet بقوله: إنَّ ما حمله المسلمون من تراث كان كافياً لإيقاظ أوروبة من غفوتها[1]. وكذلك المستشرق «سيدلو Sidillol» الذي قال بدوره: «كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروا معرفتهم أينما حلّت أقدامهم، وتسرّبت عنهم إلى أوروبا، فكانوا سبباً لنهضتها وارتقائها[2].

ويُلاحظ أَنَّ الألمان هم من أكثرِ المستشرقين دقّة في التأليف، وموضوعيّةً في استقصاء الحقائقِ التاريخيّة، ويعودُ ذلك إلى الدولة الألمانيّة نفسها، التي لم تحاولْ في القرون الماضية استعمارَ البلاد العربيّة واستغلال ثرواتها الاقتصاديّة، وتوسيع معتقدِها الديني، عبر المؤسسات التبشيريّة، التي عبثَ رجالها المستشرقون من دول أوروبيّة أخرى بالتاريخِ العربي والإسلامي، حيث

---

(١) د. أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة قاريونس بتغازي ط الثانية ١٩٨٩ ص١٨٦.

(٢) د. عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي ص٢٧٨.

انصرف مستشرقوها المنصفون الألمان إلى دراسة اللغةِ والثقافة، بنزاهةٍ وأمانة، بهدف العلم والمعرفة، وأخذوا على أنفسهم منهجاً علمياً صارماً، وهم يدرسون التراث، ويطّلِعون على المخطوطات، التي زادتْ على عشرة آلاف مخطوطةٍ في مكتبةٍ برلين لوحدها، وفاضت في مكتبات تركيا عن ربع مليون، بعيداً عن الأجواء الذاتيّة والأغراض الماديّة، والمآربِ السياسيّة والغاياتِ الدينيّة والتبشيرية، التي وللأسف سرعان ما شوَّهتْ بعضَ الدراساتِ، وانحرفتْ عن جادةِ الحقيقة، واعتورتْ أعمالَها المظنّةُ والخطأ.

تناولَ أحمد أمين أسلوبَ المستشرقين ومنهجَهم في البحثِ فكتبَ يقول: «عُرف الألمانُ بدقّة البحثِ والصبر عليه، والاستطاعة العجيبة في أن يؤلفوا بين أجزائه المتنافرة، وأن يصلوا فيه إلى أدقّ النتائج وأعمقها»[1]. وتجلّى هذا الإخلاصُ في البحث والمعرفة، من خلال الأعمالِ الرائدة، التي تبلورتْ عند المستشرق «جوهان جاكوب رايسكه» ١٧١٦ ـ ١٧٧٤[2] ـ مؤسس

---

(١) د. ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي، بيروت ط الأولى ١٩٨٢ ص١٨٤.

(٢) د. شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين ص٤٠، ٤١.

الدراسات العربيّة في ألمانيا ـ، الذي تفانى في حبّه للّغة العربيّة، وانصرف إليها درساً وبحثاً وتقصياً، وأمضى وقتَه وهو يتصفّح مختلفَ موضوعاتها، اللغوية والفقهيّة، ومات مسلولاً وفقيراً، بعد أنْ طبع ما جمعَ به من أموال «تاريخ أبي الفداء». وصرَّح يوماً قائلاً عن نفسه أنه أصبح شهيدَ الأدبِ العربي وقضيته، التي نَذَرَ لها حياتَه، وأنّ تاريخَ الشرق ليس دون الأوروبي منزلةً، وأنّ مكانةَ الإسلام العالمية، لم يقرأها في النصوص العربيّة كناقد لغوي، بل عرفها كمؤرخ تولى شرحَ التاريخ الإسلامي، حتى أصبح أحدَ السبّاقين في العلوم الإسلاميّة الحديثة، التي نهضت على أساس علوم اللغة العربيّة[1].

ولعلّ الضائقةَ الماديّةَ التي لزمتْه طوال حياته، وحرمانه الامتيازات والإغراءات المتنوعة التي تمتع بها غيره من المستشرقين، ممّنْ امتاز عليهم بعلوم العصر ومعارفه، تعود أسبابُها الرئيسة إلى حُبِّه اللغةَ العربيّة، وتعظيمِه الرسولَ الكريمَ وتنزيهِه لدينه، وتقديرِه لأبطال المسلمين وأمجادِهم، وكذلك إلى تهديدات الكنيسة وادعاءاتها، لأنّه رفض أن يكذّب نبوة محمد، ويصف

(١) مجلة الموقف الأدبي، السنة الرابعة العدد ٩ كانون ثاني ١٩٧٥ ص٧٠.

الإسلام بالهرطقة والخرافة المضحكة[1].

الاستشراق المسيء بين الموقف والمضمون:

إنَّ رفْضَ مقولةِ أنَّ كلَّ المستشرقين سيئون، لا يغني نفي وقوعِ عددٍ كبيرٍ من الباحثين المنْصفين في أخطاء عديدةٍ، جاءت عن حُسْن نيّة، ومن دون قصد، وأساءَتْ عفواً إلى الدراسةِ الرصينة، وجعلتْ أصحابَها يشتركون جميعاً، في عدم تفهمهم الدقيق للعربيّة وأسرارها البلاغيّة، كما لا يعني نفي وجودِ مستشرقين أساءوا إلى العرب والإسلام قصداً وعمداً، وراحوا يمعنون في تحريفِ التراثِ وتشويهِ حضارته، واستعملوه أداةً ضاغطةً لتحرير المخطّطات الضارّة والأهداف المؤذية، وتحقيق روايةِ التراث الأوروبي، تجسيداً لحلمهم الدائم في السيطرة والتفوق، خاصّة بعد أنْ سقطتْ أقنعةُ المستشرقين، وانكشفتْ تطلعاتُ مؤتمراتِهم، وبانتْ أهدافُ دراستهم الحديثة، التي تراجعتْ عن عملها المعروف تاريخياً، في النيْل من الأمّة، لغةً وحضارةً وديناً، ولجأت إلى الثقافةِ العربيّة

---

(١) عمر لطفي العالم: المستشرقون والعالم، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ط أولى ١٩٩١ ص٢٠١.

تحطّ من قدرتها، وتحدّ من عطاءاتها، بهدفِ تسويقِ الخطر الداهم بين الناس، وترسيخه في عقليّة الأمّة، فعبارة «رينان» أنّ الفلسفةَ العربيّة هي بحدّ ذاتها الفلسفةُ اليونانيّة، مكتوبةً بحروفٍ عربيّةٍ، تحملُ جنونَ العنجيهةِ الحاقدة، ومظاهرَ التعصّبِ العرقي، للعنصر الآري ونظرته الاستعلائيّة، تحت مختلف الشعاراتِ المطروحة، والخطاباتِ الفكريّةِ والسياسيّة المعاصرة، التي تخفي حقيقةَ الأدوار الخبيثة، في جميع الميادين، وعلى مختلف الأصعدةِ الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة.

ويمكن أنّ نَعدَّ المستشرقَ الألماني ثيودور نولدكه ١٨٣٦ ـ ١٩٣٠، الذي حاز لقبَ شيخ المستشرقين، ونال التقديرَ والاحترام لذكائه الثاقب ورؤيته الواضحة، وذاكرته النافذة، أحد الذين أساؤا عفواً إلى العربِ والإسلام، وأحد الذين أتوا بآراء عن الشعر الجاهلي والقرآنِ الكريم، فيها افتراضاتٌ خاطئةٌ، ومنطلقاتٌ غير دقيقة في إطلاق الأحكام، علماً أنّه أبدع في كل حقلٍ طرقهُ، وأنّه وقفَ على جوهر الأشياء، فأنجز كلغوي وباحثٍ ومترجمٍ ونحويٍ وناقد، مقداراً ضخماً من العمل المثمر، في الحقول المختلفةِ من دراسةِ العهد القديم والمؤلّفاتِ المختصّة في الأبحاثِ النقديّة، اللّغويةَ

والدينية، وفي الدراسات العقلانيّة، التي جعلتْ منهجه قدوةً علميةً أبعدتْه عن الرومانسيّةِ المفرْطةِ والعواطفِ الثائرة.

لقد أكّدتْ الوقائعُ التاريخيّة أنَّ نولدكه وأمثالَه من المستشرقين المنصفين، لا يستطيعون أن يعطوا حكماً على الشعر العربي، ويكونوا بديلاً للنقّاد العرب، بسبب التمايز الثقافي والتباينِ المجتمعي، الذي ذكرناه آنفاً، والحاجةِ إلى معرفةٍ تامّة بدقائقِ اللّغة العربيّة، وإلى أساليب الكتابةِ الشعريّة، التي نشكّ في قدرة أيٍّ أجنبي مستشرقٍ أنْ يكتسبها، وبالتالي لا يجوزُ منطقياً أَنْ نُعوِّلَ كثيراً على تصوراتِ نولدكه وآرائِه النقديّة، حول القصيدة العربيّة في الجاهليّة، التي اعتبرها غير مفهومةِ المعالم، وغامضةِ الأصول، والتي اختلفتْ ـ حسب رأيه ـ عن صورتها الأصليّة، بسبب تقادمِ الزمن، ولأنّ أدبَ شعبٍ لا يمكنُ أن يبقى على صورته الأصليّة وقتاً طويلاً، من دون أنْ يدوَّن، أو لاعتبارِ ديني، حيث لا يوجد في القصيدةِ الجاهليّة ذكرٌ للآلهة، إلاّ في أبياتٍ قليلة.

ولذلك نراه يُعلنُ أنّ التزييفَ الفعلي، انطلقَ من الشعراء المتأخرين، الذين وضعوا قصائدَهم على لسان شعراء جاهليين، لينالوا الحظوةَ والقبولَ، والذين انتحلوا قصائدَ كاملةً، أو أبياتٍ محدّدةً، من أجل الوعظِ أو

الفخر بالقبيلة وذمّها[1]، وراحوا ينسجون النصوصَ الشعريّة حسب أذواقهم وما حفظتْه ذاكرتهم، ويسلكون منهجَ الانتقاء والاختيار من مختلف الروايات المتضاربة، وبخاصّة في ما يتعلّق بنشأةِ القصيدةِ وظروفِ نظمها.

يذكرُ نولدكه المعلّقات، فيعتبرُ قصائدَها المعلّقة على الكعبة والمكتوبة بالذهب خرافةً، وأنّ خبرَها مشكوكٌ فيه، ووالشواهدَ عليها رديئةٌ، ويشيرُ إلى أنَّ الكتّاب الأقدمين ممّنْ كتبوا تاريخَ مكة، وآثروا ذكرَ كلِّ تفاصيلها الدقيقة أمثال الأزرقي وابن هشام وابن الكلبي والأصفهاني لا يعلمون عنها شيئاً. ويُضيف أنَّ القرآنَ الكريم أو النبيّ ﷺ لم يعرفْ عنهما أنهما أبْديا رأياً في هذا الأمر. ويظهر أنّ حمّادَ الراوية هو الذي اختارَ المعلّقاتِ السبع من غيرها، وأنّ الحكَمَيْن المختصّين، المفضل الضبي وأبا عبيدة أيّدا رأيَه، ورفضا أنْ يكونَ غيرُه من العربِ القدماء.

أثّر هذا المنهجُ في كتابات بعض أدباء العرب المعاصرين ممّن ساروا على طريقة نولدكه، في تعاطيه

---

(١) عبد الرحمن البدوي: «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩ ص٢٧.

مع التراث الأدبي القديم، وتصدّر هذه الفئةَ عميدُ الأدب العربي طه حسين، الذي قدّم بحوثَه وفْق نظريةِ المستشرقين النقديّة، ورفضَ الكثرةَ المطلقة من الأدب الجاهلي، واعتبرها منحولةً بعد ظهور الإسلام، وليست من الجاهلية[1]. لأنّها تمثّل ـ بنظره ـ حياةَ المسلمين وميولَهم، أكثر مما تمثّل حياةَ الجاهليين. وشكّك في الشعرِ الجاهلي وتأثّر بالمستشرق الإنكليزي دايڤيد مارغليوث ١٨٥٨ ـ ١٩٤٠ الذي زعمَ أنّ المسلمين في نهاية العصر الأموي ادعوا وجودَ شعرٍ جاهليٍ عربي، وجمعوا الجزءَ الأكبر منه، وأضافَ أنّ الجوابَ عن الشعر الجاهلي يُحيّره، لأنّه لا يعرفُ أصلَه، أيُرجعه إلى العهد القديم أو إلى العصر الإسلامي؟ وأشارَ طه حسين إلى أنّ ما نقرأه، من شعر امرئ القيس أو طرفه أو ابن كلثوم أو عنترة، ليس من هؤلاء الناس في شيء، وإنما هو من نحل الرواةِ واختلاق الأعراب وصنْعة النُحاة، وتكَلّفِ القصاص، واختراع المحدثين والمفسرين والمتكلمين[2]. وبيّن أنّ البحثَ الفنيَّ واللّغوي، يُظهرُ

---

(١) طه حسين: «في الأدب الجاهلي» دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية عشرة ١٩٧٧ ص٦٥.

(٢) طه حسين: في الأدب الجاهلي: ص٦٥.

عدم صوابيّة الاستشهاد بهذا الشعر على تفسير القرآنِ وتأويل الحديث، ويُعلن أنّ حياة العرب في الجاهلية ظاهرةً في شعرِ الفرزدق وجرير وذي الرمّة والأخطل، أكثر من ظهورها في الشعرِ، الذي يُنسبُ إلى طرفة وعنترة، وأنّ هذا الشعرَ يصوّر الحياةَ الجاهليّة بضبابيّةٍ غامضةٍ، بريئةٍ من الشعور الديني وعاطفته.

ولعل المستشرقِ بروكلمان الذي قضى نصفَ قرنٍ في تأليفه كتابَه «تاريخ الآداب العربيّة» وسلَكَ به نهجاً خاصّاً، احتاجَ إلى صبرٍ وجهدٍ عجيبين، لا ينقصُ من فضله، ولا من قيمة كتابه، بعضُ الثغرات اللغويّة والقضايا الاجتماعيّة، وسيظلُّ عظيمَ الفائدة، لا يَستغني عنه باحثٌ مهما تعدَّدتْ الكتبُ التي من نوعه[١]. خاصّة وأنّه حاولَ أن يكونَ موضوعياً ونزيهاً، غير أنه لدوافع لغويّة وفنيّة وبيئيّة، اضطر إلى التّعاطي مع المفاهيم العربيّة بمنظورٍ غربي، وذوقٍ أجنبي، جعلاه يحيدُ عن جادة الصواب، ويسقطُ في منعطفاتِ الانحراف والتشويه، ولا يسلمُ من الوقوعِ في خطأ

---

(١) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم، بيروت طبعة الثانية الجزء الأول ١٩٧٨ ص٢٠.

الاستنتاج النسبي، عندما اعتبر أنّ الفاتحين العرب ميّزوا أنفسَهم عن الأعاجم المسلمين، وانتقصوا من مكانتهم، وجعلوهم رعيّة في الدرجة الثانية، من دون أن يلتفتَ إلى عدالة الفاتحين المسلمين، الذين عاملوا جميعَ الناس، من مختلف الطبقات والأجناس، من دون تفرقةٍ وتمييز، واستنتج أنّ العربَ نظروا إلى الأعاجم نظرةَ القطيع إلى الغنم، غير آبهٍ بمعنى لفظ الرعيّة ومرادفاتها، التي يُطْلقُ على الماشية والقوم والشعب عامّة، ومنها قول الرسول ﷺ: «ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيّته، فالإمام الذي على الناس راع، وهو مسؤولٌ عن رعيّته، والرجل راعٍ في أهل بيته وهو مسؤولٌ عن رعيّته، والمرأةُ راعيةٌ على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولةٌ عنهم، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيّته»[١].

لقد أغمضَ بروكلمان عيْنيْه وللأسف عن المصادر الثّقة، ولجأ إلى الروايات الضعيفة والأقوال الساقطة عند الواقدي والطبري، عندما زعمَ أنّ النبي ﷺ اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهةِ الكعبة الثلاث اللات

---

(١) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص٤٧.

والعزى ومناة، وأنّه تشبهاً باليهود، أمرَ أتباعه بصيام يوم الكفارة، المعروف بصوم عاشوراء، في العاشر من محرم، وادعى أيضاً: «أنّ الرسولَ أمرَ أصحابَه بشنّ غزوةٍ على القوافلِ المارة في المدينة في شهر رجب الحرام، ناقضاً القانون الخلقي والاجتماعي للنظام القبلي في الجاهليّة»[1]. وهو قد جانَبَ الحقيقةَ حين تعرّض للرسول ﷺ، وقال: إنّ الضرورةَ الدينيّة ساقته إلى أنْ يُعلنَ صلتَه بالله، وأنّ محمداً استخدمَ في دعوته أساليبَ الكهنة اللغويّة، من دون أن يوضح ما هي هذه الضرورة، ولا كيف سمحَ لنفسه أنْ يدّعي أنّ أسلوب القرآن كان سجعاً، علماً أنّ الله في القرآن الكريم تحدّي العربَ من كهنةٍ وسحرة وشعراء، أن يأتوا بآية من مثله، حتى يعترفوا أنّه الحق[2]. لأنّ جملَ القرآن المؤثرة التي يغلبُ عليها صورُ التقطيع، ودقّةُ الإيجاز، ليستْ من السجع إطلاقاً، وهي لا تُشْبه سجعَ الكهان، وإنّ سحرَ ألفاظها وجمالَ تراكيبها معجزةٌ، لا يقدرُ على صَنْعها بشر.

أَما المستشرقون المسيئون الذين عمدوا قصداً

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٨.

(٢) أحمد سمايلوفتيش: فلسفة الاستشراق ص٣١٧.

وتعصّباً إلى تشويه التراث والحضارة والدين فهم كُثرٌ، منتشرون في مختلف الأقطار الأجنبيّة، نذكر منهم اليهودي المجري أغناطيوس أجنتس جولد تسهير[1] ١٨٥٠ ـ ١٩٢١ واليهودي الإنكليزي دايفد مارغليوث[2] الذي ذكرناه سابقاً، وغيرهم ممَّنْ ادعوا أنّ الإسلامَ هو فرعٌ من النصرانيّة، وأنّ أحسنَ ما في الإسلام مأخوذٌ من تعاليم الدين المسيحي، وأنّ الفقهَ الإسلامي مأخوذٌ أيضاً من التوراة والقانون الروماني.

زعم جُولد تسهير أنَّ ما نُسبَ من أقوال على لسان الرسول ﷺ، هي من صُنْع القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وأنَّ أحكام الشريعةِ لم تكنْ معروفةً لجمهور المسلمين في الصدر الأول من الإسلام، وأنَّ الجهلَ بها وبتاريخ الوقائع الإسلامية كان لاصقاً بكبار الأئمة، وهذا ليس غريباً لأنَّه حشَدَ رواياتٍ ساقطةً وافتراءاتٍ متهافتةً، اعتمدتْ على ما نقَلَه كتابُ الحيوان للدميري، الذي أعرضَ عن كلّ ما دُوِّنَ عن تاريخ أبي حنيفة تدويناً علمياً وثابتاً، وأخذ برواية ضعيفة، لا يتمالكُ طالبُ العلمِ

---

(١) جولد تسهير: صاحب كتاب الخرافات عند العبرانيين، ودراسات له ومحاضرات في الإسلام وتاريخ تفسير القرآن.
(٢) مارغليوث: صاحب كتاب حياة محمد ونشأة الإسلام.

المبتدئ في الدراسة من الضحك لسماعها[1]. وصارت كتبُه تُحظى بالتقدير والاحترام في أوروبة، وبخاصّة من قبل المستشرقين، لأنّه مع إخوانه اليهود، لم ينخرطوا داخلَ الحركةِ الاستشراقية بوصفهم يهوداً، معروفين بحقدهم الأعمى على العربِ والإسلام، كي لا ينكشفَ أمرُهم، ويضيعَ جهدهم، ويعزلوا أنفسَهم، بل أقبلوا على الاستشراق، في إطار حركته العامة، بوصفهم الأوروبي، لينفثوا منه سمومَهم، ويدخلوه مستخفين تحت رداءِ العلمِ والبحث عن الحقيقة، في حين أنّ هَدَفهم المعروف إضعافُ الإسلام والنيلُ من قيمه، وإثباتُ فضلِ اليهوديّة عليه، وأنّ غايتَهم هي خدمةُ الصهيونية، وتحقيقُ مزاعمهم الموعودة، التي أكد القرآنُ عداوتَها في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[2]. ولهذا لا ندري كيف استطاع الدكتور عبد الرحمن بدوي أنْ يمجّدَ أعمالَ جولد تسهير ويقلّدَه سيادةَ البحث الديني، ويعتبرَه نعمةً إلهيّةً للعرب والمسلمين، وأنْ يضعَه خارجَ الدائرة السياسيّة، ومن غير المعنيّين بقضايا الشرق الأوسط

---

(١) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص٤٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨٢.

ومسائلِه السياسيّة والفكريّة، أو بالشؤونِ الدينيّة والمفاهيم الثقافيّة، ويجعله مختلفاً عن غالبيّة كبار مستشرقي القرن العشرين، إنْ في مادةِ البحث أو في منهجه[1]. في حين خالفَ د.بدوي كثيرٌ من الباحثين، فقال محمد عزّت الطهطاوي: إنّ جولد تسهير واحدٌ من المستشرقين الصهيونيّين، الذين كانوا أدواتٍ يحركها هرتزل في يده[2]. وأنه أوكل بمهمةٍ سريّة من قبل الحركة الصهيونيّة، وكان في طليعة الذين أقاموا الجامعة العبريّة في القدس عام ١٩١٩، كدعامةٍ أولى في الغزو الصهيوني الاستيطاني لفلسطين.

أمّا داڤيد مارغليوث[3] ـ أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة أكسفورد ـ فقد ألقى محاضراتٍ عن نشأة الإسلام، وكتب عن حياة محمد والعلاقات بين العرب واليهود، وامتازت دراساتُه بالسمات العدوانيّة والأحقاد الخبيثة، وبالروح الحاقدة المتعصّبة، البعيدةِ عن المعارف

---

(١) د. صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص٢١٨.

(٢) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: التبشير والاستشراق ص٢٢٠.

(٣) اختار المجمع العلمي العربي في دمشق مرغليوث عضواً مراسلاً عند نشأته عام ١٩٢٠.

البحثيّة والمناهج العلميّة. وكان للغةِ الضاد العربية نصيبُها من حقده وسهامه، فزعم أنّ أهلَ البدو كانوا يهتمون بتعلّم البلاغةِ عند أساتذة المدارس، الذين وضعوا قواعدَ البلاغةِ الأساسيّة، ولا يَستبْعد أن يكونَ النبيّ ﷺ قد مارسَ هذا النوعَ من المعرفة، قبل بعثته النبويّة، من أجل طلاقةِ لسانه، ونبوغه في فصاحةِ الكلام.

وهكذا كشف مارغليوث عن الأسس النقديّة، المتّبعة عند معظم المستشرقين، الذين استهوتهم الغايةُ العمياء، ففقدوا الميزةَ العقليّة، عندما أكثروا من إفراط التهم والتّرهاتِ الباطلة، واستفاضوا في اختراع العللِ والأَسباب الوهميّة، التي لا تعرفُ سنداً صحيحاً، وتعتمد لغةَ التخييل، ومنطقَ السلطةِ والتحكّم.

وقد تصدّى لأعمال مارغليوث وصحبه من الكتّاب الصهاينة، بعضُ المستشرقين أنفسهم، وعددٌ كبيرٌ من كتّاب العرب، الذين راحوا يُفنِّدون مزاعمهم، ويردّون أراجيفَهم، ويطالبون بضرورة التصدّي لترهاتهم. فمثلاً شكيب أرسلان ناقضَ ادعاءَاتِهم، ورفضَ الوقوفَ مكتوف الأيدي، أمام كتاباتهم، وحيال تحاملهم على اللغة العربيّة والإسلام، وأكّد أنّ أحداً لا يقدرُ أنْ يدّعي، أنّ مارغليوث وغيره من المستشرقين، يستطيع أن يفهمَ

الكلامَ العربي، أكثر من أهل اللسانِ أنفسهم، الذين نشأوا فيه، وأنْ يتدخل في المسائل اللّغويّة، وأنْ تؤخذَ عنه وأمثاله علومُ العربيّة، وتُقْبلَ أحكامُهم على لغتنا وأدبنا.

إنّ الحديث عن ظهُور الاستشراق وخفوتِ دوره، ما زال غير صحيحٍ، وإنّ القول إنّ الاستشراقَ تحوّلَ إلى عمل علمي جاد، وأضحى طاقةً فاعلةً في توجيه العلوم الاجتماعيّة، غيرُ دقيقٍ أيضاً، لأنّ الحركةَ الاستشراقيّة على العموم متماسكةُ الأهداف، ومدعومةٌ من قبل حكوماتها، التي ترسم لها الموضوعاتِ الفكريّةَ والأبعادَ المستقبليّة.

ولعلَّ مراكزَ البحوث والدراساتِ الشرقيةَ المنتشرةَ في مختلف بلدان العالم تمثّلُ صورةَ الاستشراق الحديثة، التي ترصدُ ما يجري في العالم، وتخضعُ وسائلَ المواجهة الثقافيّة، فمثلاً في أميركا وحدها يوجد حوالي تسعةُ آلاف مركز للبحوث والدراسات، يختصّ خمسون منها بما يجري في العالم الإسلامي، الذي وُضعَ في تصرّفِ صانعي القرارات السياسيّة والخططِ الاستراتيجيّة فيها، ونعتقدُ أنَّ الدوائر الاستشراقيّة ومؤسساتها، ما زالت تمثّلُ الخلفيّة الفكريّة للصراع بين الشرق والغرب،

وتلعب دوراً مميزاً في صياغة التطورات الثقافية في أوروبا، وفي التأثير على رأيها العالمي. لكنْ يبقى الأملُ في بعض المؤشرات، التي تقتربُ من الاعتدال، في معالجة القضايا الشرقيّة، والتي نرجو لهذا الاتجاه، أن يُصبحَ في النهاية، تياراً يُسْهمُ في دعم التفاهم الأخوي بين الأمم، والقضاء على المنطلقات العدوانيّة التي استمرت قروناً عديداً.

الفصل الثاني

الدراسات الاستشراقية
وأثرها على الحملة الفرنسية

كَثُرَ الحديثُ عن الحملة الفرنسيّة على مصر عام ١٧٩٨، وتفاوتت الآراءُ حول أسبابها، وتبايَنَتْ الاتجاهاتُ الفكريّةُ المؤيّدةُ والدراساتُ السياسيّةُ المعارضة، فعدَّها بعضُ الكتّاب مُنْطلقَ النهضةِ العربيّةِ الحديثة، وباعثةَ الحركةِ الوطنيّةِ والقوميّة، واعتبرها بعضُهم الآخر حملةً سياسيّةً استعماريّة، تَقَمّصتْ وجهاً حضارياً ولباساً عمرانيّاً، أخفى وجهَها الحقيقي، وموَّه وقائعها المشبوهة.

ولعلّنا لا نبتعدُ عن الحقيقةِ التاريخيّة إذا اعتقدْنا أنّ الحملةَ الفرنسيّة جاءتْ إلى مصر في الوقت الذي بدأتْ فيه شعوبُ المنطقةِ العربيّة عامّة ومصر خاصّة، تتلمّسُ طريقَ الحريّةِ، وتنادي بالتحرّر من القوى الظالمةِ، والاستقلالِ عن الامبراطوريّة العثمانيّة، وبناء دولتها

المستقلّة، يوم كان الاستشراقُ والاستعمارُ على وفاقٍ تام، وكان الأوّلُ يُهيّئ الأجواءَ الأجنبيّةَ لسحْقِ بلادِ الشرق والاستيلاء عليها، ويُصوّرُ العالَمَ العربيَ بصورةٍ قبيحة، في أخلاقه وعاداته وآرائه، وكثيراً ما كان الاستشراقُ يَسْبقُ الاستعمارَ ليُصبحَ طلائعَ جيشه، وأعينَ أمنه، التي توفّر له حريّةَ التشكيك في قِيم الشعوب، والسخريةَ من تقاليدها، والنيْلَ من حضارتها والإساءَة إلى تراثها الفكري. وكان على الاستعمار أنْ يقومَ بتنفيذ أحكام مستشرقيه، والتقيّدِ بأقوالهم، والحرْصِ على إنجاز مهمّتِهم، بتدريب باحثين ودبلوماسيّين ومهنيّين، حملوا أيديولوجيةَ الغرب وعقليّته، واستخدموا الكتبَ والمجلاّتِ والمؤتمراتِ العلميّةَ والمعاهدَ الأكاديميّة، وعملتْ أفكارُهم على تحطيم البناء التقليدي للحياة الاقتصاديّة، وأثّرتْ مفاهيمُهم في حياة الإنسان العربي وطريقةِ معيشته، وعدّلتْ أساليبَ تفكيرِه الاجتماعي، وأنظمته السياسيّة وموروثِه الثقافي[١]. وبالتالي فإنّ أوروبة لما أرادتْ عقدَ صلاتٍ سياسيّة مع بلاد الشرق، وتنافست دُوَلُها على استعماره، والاغترافِ من ثرائه،

---

(١) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود زايد فارس، دار العلم، بيروت ١٩٥٤ ص٢٥٣.

أحسنتْ كلُ دولةٍ إلى مستشرقيها، فضمّهم ملوكُها إلى حاشياتهم ـ أمناء أسرار ومترجمين ـ وانتدبوهم للعملِ في الجيش والسلك الدبلوماسي وولّوهم كراسي اللّغاتِ الشرقيّة، في كبرى الجامعاتِ والمدارس الخاصّة والمكتبات العامّة... وأجزلوا لهم العطاءَ، في حلّهم وترحالهم، ومنحوهم ألقابَ الشرفِ وعضويّةَ المجامع العلميّة[1].

إنّ فكرةَ احتلال مصر قديمةٌ، تعودُ إلى النزعةِ السلطويّة عند حكّام فرنسا، في عهد ما قبل الثورة الفرنسيّة عام ١٧٨٧م وبعدها، وإلى التنافس الاستعماري بين فرنسا وإنكلترا، وترسيخ تجارة الهند الاستثماريّة في منطقة الشرق. وهذا ما أشار إليه وزيرُ حربيّتها دوسارتين في حكومة لويس السادس عشر في قوله: «إنّ احتلالَ مصر هو الطريقةُ الوحيدةُ لحفظِ تجارتنا في البحر الأبيض، ومتى توطّدتْ قدمُنا في مصر صرْنا أصحابَ السيادة على البحر الأحمر»[2]. وأكّدتْه رسائلُ تاليران ـ

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، مصر ١٩٦٤ الجزء الثالث ص١١٤٨.

(٢) ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٧٢ ص٨٨.

وزير خارجيّة فرنسا ـ المبعوثةُ إلى حكومةِ الإدارةِ في باريس، والتي أظهرتْ أنّ حالةَ الأمبراطوريّة العثمانيّة المفكّكة تُسهّلُ عمليّةَ الحملة، التي وصَفَها بنزهةٍ سياسيّةٍ، وبخاصّة عندما أظهرت التقاريرُ كرْهَ المصريّين للمماليك ـ حاكمي البلاد ـ الذين لو فكّروا بتسليم الأهالي المصريّين السلاحَ، «لمحاربةِ جهودِ الحملة الفرنسيّةِ، فإنّهم ولا شكّ سيحاربون طائفةَ المماليكِ أنفسِهم»[1]. وبالأحرى فإنّ احتلالَ فرنسا لمصر يعني قهرَ إنكلترا، واستعاضةَ فرنسا ما فقدتْه في أميركا بداية القرن الثامن عشر من مناطق أكاديا وحوض الهدسن الغربي وكندا ولويزيانا[2]، والقضاءَ على قوّة إنكلترا، التي أصبحتْ سيّدةَ العالمِ يومَ أخضعَتْ البحارَ لمشيئتِها، وستُصْبحُ ضحيَّتَه في اليوم الذي تفقدُ ملكيّتَها.

لكنّ الطريفَ في أمر الحملة ودراستها الحديثة، إنّ فرنسا أرسلتْ حملتَها المموّهةَ إلى الديار المصريّة، مع خيرة علماء فرنسا وكتّابها، المتخصّصين في شتى أنواعِ

---

(١) لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، دار الهلال، مصر ١٩٦٩ ص٧١.

(٢) د. طلال المهتار: آثار الحملة الفرنسية على مصر، كلية الحقوق الجامعة اللبنانية ١٩٦٢ ص١٧.

العلوم والمعارف الأدبيّة والفنيّة، لتغيّرَ وجهَ البلاد الثقافي، وتمزّقَ وحدةَ الأمة، ولتدفنَ تراثَها الحضاري وتصمه بالمميّزات الأجنبيّة، وبصورة أدق لتقضيَ على بشائر اليقظة العربيّة، وإرهاصتها الفكريّة والدينيّة والاجتماعيّة، التي لاحتْ بوادرُها في أكثر من منطقة، على يد محمد بن عبد الوهاب ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ في جزيرة العرب وفي نجد، وامتدتْ آثارُها إلى مصر والسودان وسورية وبلاد المغرب العربي. وقد بشّر صاحبُها ابن عبد الوهاب بردّ الخلافة التي اغتصبها الترك إلى العرب، وساهمتْ حركتُه في إحياء التراث العربي، ويقظة علوم اللّغة العربيّة، التي شقّتْ طريقَها، على يد الشيخيْن الكبيريْن عبد القادر البغدادي ١٦٢٠ ـ ١٦٨٣ ـ صاحب خزانة الأدب ـ، والمرتضى الزبيدي ١٧٣٢ ـ ١٧٩٠ ـ صاحب تاج العروس، ومَنْ تبعهما من تلاميذهما في مصر، والتي أيقظت علومَ الحضارةِ على يد الشيخ الجبرتي الكبير[1] ١٦٩٨! ـ ١٧٧٤.

فهاتان اليقظتان المتفجّرتان في كلٍّ من مصر والجزيرة العربيّة، لوْ حدثَ اندماجهما، وانصهرت

---

(١) هو والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الذي عُرف بصاحب المجلّدات الثلاثة: تاريخ عجائب الآثار.

أعمالُهما ونجحتْ مسعاهُهما، لغيّرتْ بالتأكيد وجهَ المنطقةِ العربيّة والعالم كلّه، ولربّما لا يعلمُ إلاّ اللّهُ كيف يكونُ المصير. ولهذا كانتْ غايةُ الحملة ورجالُ مستشرقيها، تجريدَ دار الإسلام في القاهرة مثلاً من أسباب اليقظة، ووأدها في مهدها، والقضاءِ عليها قبلَ أنْ تتفاقمَ ويصلبَ عودُها، وتنتشرَ أفكارُ كتبها النفيسة، التي سرقتْها فلولُ الحملة وهي تخرج وقائدُها خائبةً، والتي افتقدها الجبرتي الصغير، وجعلتْه في حيرة من أمره، حين شرع في تأليف تاريخه. وكانتْ حملةً مبرمجةً وهادفةً، اخترقتْ دارَ الإسلام في أعظم معقلٍ من معاقلها، حيث الجامعُ العتيق بالفسطاط، والأزهرُ الشريف بالقاهرة، لضربِ حركة الوعي ونواتها الصاعدة، وتدميرِ بشائر اليقظة، التي بدتْ مظاهرُها الثقافيّةُ تَرْتَسمُ في أكثر من معْلم وكتاب، تدميراً لا يُبقي ولا يذر، كونها أرّقتْ مخادَعَ الاستشراق، وعكّرَتْ أذهانَهم، واضطرتْهم إلى الإسراع في تنفيذ مخطّط الحملة، التي سرعان ما جاء بها قائدها المغامر نابليون، وهو يصحبُ معه عشراتٍ من المستشرقين والعلماء ـ المتخصّصين في كلّ علم وفن ـ، الذين على معارفهم وتجاربهم رستْ دعائمُ الاستعمار الحديث، لأنّهم امتلكوا ألوفاً من مخطوطاتِ كتبِ الديار المصريّة النفيسة، التي سُرقت

إبّان الحملة، ووُزِّعت بعدها في جميع أرجاء أوروبة ومكتباتِ بلدانها وجامعاتها الغربيّة.

عرفت فرنسا في هذه الفترة نابليون قائداً أوروبياً محنّكاً، شديدَ البأس وخوّاضاً لغمراتِ الموت، ضرّسته الحروبُ حتى صار اسمه مثيراً للرعبِ في القلوب. أصاخ سمعَه لنذير الاستشراق ونُصحه، فقدّرَ أنّ الوقتَ حان ليكونَ أوّلَ قائدٍ أوروبي يستطيعُ بقوّته «التي لا تُقْهر كما يظن» أنْ يخترقَ بلادَ مصر، وأنْ يُداهمَ اليقظة، التي أرّقتْ منامَ الاستشراق، وأنْ يبطشَ بها في عقر دارها، ويَردَّ لفرنسا هيبتَها التي ضاعتْ يومَ طردتْها بريطانيا في دار السلام في الهند. وقد كشفَ نابليون عن غايته من الحملة، بعدما تعرّت أقنعتُه المزيّفةُ، وامتنعَ أبناءُ البلاد عن الخضوعِ له والقبول بوجوده، وعجّلَ جنودُه الغزاةُ في تشويش ما استقرّ في نفوس المصريّين، وإطفاءِ نار حقدِهم ـ القديم والحديث ـ على العرب والمسلمين، حين سفح جنودُه الدماءَ في القاهرة، وأوْغلوا في سفْكِ دماء الأتراك والمصريّين معاً في المدن والأقاليم، بناء على أوامرَ منه، وتشبّهاً بأعماله الإجراميّة.

فقد تبيّن أنّ نابليون كان يَقْتلُ يومياً في القاهرة خمسةَ أو ستةَ أفرادٍ من طلّابِ الأزهر، ويأمرُ أنْ يُطافَ

برؤوسهم في شوارع المدينة، ويؤكّدُ وهو يوجّه كلامَه إلى جنوده أنْ «هذه هي الطريقةُ الوحيدةُ لإخضاع هؤلاء الناس، وعليكم أنْ توجّهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح»[1]. ويعترفُ القواد الفرنسيّون بالفظائع التي ارتكبت في قمع ثورة المصريّين، وبالمذابح الرهيبة وعمليّات التنكيل والإعدام، ويصرّحون مثلاً أنّ نابليون أمرَ الجنرالَ برتييه Berthier ـ رئيس أركان الحرب ـ أنْ يصدرَ تعليماته إلى قومندان المدينة، بقطع رؤوس جميع المسجونين، الذين أُخذوا ومعهم أسلحة، وإرسالِ الجثث إلى شاطئ النيل وإغراقها في النهر[2]. وأنّه كان يُعلن عن ذلك ظناً منه أنّه يشكّلُ درساً قاسياً.

ولهذا أقدمَ نابليون على قطع رؤوس كثيرٍ من الرجال وزعماء الأهالي، وأعدمَ العديدَ منهم. وقد وُفّق الجبرتي في وصفه دخولَ القوّاتِ الغازيةِ شوارعَ المدينة وأبهاءها الثقافيّة ومقاماتها الدينيّة في قوله: «دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول... وعاثوا بالأزْوقة

(١) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص١٠٢.

(٢) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، دار المعارف، مصر ١٩٨١ الجزء الأول ص٢٨٣.

والحارات... وهشّموا خزائنَ الطلبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والودائع، وطرحوا الكتبَ والمصاحفَ على الأرض، وداسوها بأرجلِهم ونعالِهم، وتغوّطوا فيه وبالوا وتمخّطوا وشربوا الخمر وألقوها بصحنه ونواحيه... وعرّوا مَنْ صادفوه من ثيابه وأخرجوه»[1].

هذا الحقْدُ المكين كشفَ قناعَ الحملة وحنكةَ مستشرقيها ورياءَ علمائها، الذين حاولوا تضليلَ الرأي العام، عندما ادّعوا أنهم تكبّدوا مشقّةَ وعورةِ البراري والقفار، وقطْعِ أخطار البحار، ليُخْرجوا الأمّةَ المصريّةَ من الظلمة إلى النور، ومن عصر الجهالةِ والانحطاط إلى عصر العلم والمعرفة، ومن حالةِ التخلّفِ والعاداتِ التقليديّة إلى عصر النهضة الحديثة، وقد تمكنوا من تسويغ مزاعمهم لكثيرٍ من أساتذتنا وكتّابنا، عندما نجحوا في تسويقها للصروح الأكاديميّة والمؤسساتِ الجامعيّة والأنديةِ الثقافيّة، التي أثنتْ على منطلقاتِ الحملة الفكريّة والعلميّة، ونتائجها التنويريّة، والتي راح مؤرخوها يعودون بتاريخ مصر الحديث إلى هذه الحملة، التي

---

(١) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص٩٣.

أَدخلتْ الاستعمارَ الأوروبي من خلال نشر مدنيّته الحديثة، وغرْسِ أفكاره الإصلاحيّة، والتي فتحتْ عيونَ المصريّين على التقنيّاتِ المتطوّرة والوسائلِ التنظيميّةِ المتقدّمة[1]. علماً أنّ جنودَ الحملةِ أنزلوا بالناس المصائبَ والبلايا، وتركوا البلادَ أرضاً بلِقعاً، تصفّر فيها الرياحُ، ولا تزال آثارُها المهدّمةُ شاهدةً إلى يومنا هذا، ولم يرحلوا عن عاصمتها التي كانتْ من أبهى المدن الزاهرة، ومن أجملها في العالم، بعمارتها الجميلة وفنونها المتنوّعة وبركها الأخّاذةِ ومنتزهاتِها الواسعة، إلاّ وقد سرقَ مستشرقوها أنفسَ الكتبِ وأجودَ الذخائرِ الثقافيّة كغنائم حرب يمنّونَ علينا بها في أيّامنا الحالية، بعد أنْ حفظوها من التلف ونشروها. وكانت غايةُ الحملةِ فَرْنَسةَ المنطقةِ، وتغييرَ هويّةِ دولتها المصرية، لا خَلاَصَ أبنائها من الحكم التركي المملوكي، كما يدّعي قائدها، الذي ظلم العبادَ وساس البلادَ بجبروت قوّته وفداحةِ ضرائبه، بدليل رسالة نابليون إلى خليفته على قيادة الجيش كليبر، بعد أنْ نجا بنفسه، وعاد إلى بلاده خائباً مهزوماً من ثورة عكا، عندما طلبَ منه أنْ يجمعَ

---

(١) أحمد عبد المعطي حجازي: رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر، دار الآداب، بيروت ط١ ١٩٧٩ ص١٢٨.

خمسمائة شخصٍ أو ستمائة من المماليك والعرب، وأن يرسلَهم إلى فرنسا، ويحجزَهم فيها سنةً أو سنتين، يشاهدون في أثنائها عظمةَ فرنسا ورقيَّ أمّتها، ليعودوا إلى مصر وقد أخذوا بتقاليدها، وليؤلفوا حزباً يؤثّرُ في الآخرين، وينشرُ ثقافتها بين المواطنين. علماً أن نابليون كان قد استخدم في حملته على البلاد المصريّة «جيشاً» من الباحثين المستشرقين الذين اقتصرتْ مهمتُهم الوظيفية على توجيه ضرباتٍ قاصمةٍ إلى الحضارة العربيّة وتراثها العربي. وقد اعتبره حاييمُ وايزمان ـ زعيم الحركة الصهيونية ـ أوّلَ الصهيونيّين الحديثين من غير اليهود، وشجّعتْ الشخصياتُ اليهوديّة في أوروبة فرنسا في أخذِ السيادةِ المصريّة من تركيا، لقاء الثمن الذي وعدها به بونابرت، والذي يمكّنُها من الاستيلاء على القدس وبناء هيكل سليمان. وهو أوّلُ وعد غربي رسمي قطعه نابليون واقترحَ فيه إقامةَ دولةٍ يهوديةٍ في فلسطين، قبل وعد بلفور بـ ١١٨ سنة. ومما جاء في النصّ الموعود، من نابليون ـ القائد الأعلى للقوات المسلّمة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا ـ إلى ورثة فلسطين الشرعيّين: «أيها الإسرائيليّون، أيّها الشعبُ الفريد الذي لم تستطعْ قوى الفتح والطغيان أنْ تسلبَهم اسمَهم ووجودَهم القومي... انهضوا بسرور أيّها

المبعدون...»[1]. ويُضيف سارعوا باستعادة حقوقكم التي سُلبتْ لآلاف السنين، وأقيموا «وجودَكم السياسي كأمّة بين الأمم، وحقّكم الطبيعي المطلق في عبادة يهوه..»[2].

دور الاستشراق السياسي الفرنسي في احتلال مصر:

لعبَ الرحالةُ المستشرقون من الفرنسيين أدواراً واضحةً في تنفيذِ الحملة الفرنسيّة على مصر، والتخطيطِ لمشروعها السياسي الاستيطاني، واستطاعت الأيديولوجيّةُ الاستعماريّة، التي سيطرتْ على توجّهات المستشرقين، أنْ تسخِّرَ أعمالَهم الأدبيّةَ والتاريخيّة، لخدمةِ مطامعِها ومصلحةِ أهدافها، وأنْ تبعثَ برجالها المستشرقين إلى البلاد التي تنوي غزوها، وتظلَّ ترفدُ حركتَها الاستعماريّةَ بمعلوماتٍ شوّهت حياةَ الشرقِ وعقليّة بنيه، وعاداتِ بلادِه، وهيّأت الرسلَ والدعاة من التجار والمبشرين والعلماء، للانتشار في مختلف أنحاءِ البلاد، كي يكونَ الاحتلالُ كاملاً، يقومُ على معرفةٍ تامّة بجميعِ أحوال المنطقة وشؤونها[3]. وبالأحرى لقد وظف المستشرقون

---

(١)(٢) صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق، ص٩٢.

(٣) عائشة عبد الرحمن: تراثنا بين ماض وحاضر، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٨ ص٢٢.

قدراتِهم الثقافيّة وإمكانياتِهم السياسيّة، لخدمةِ أغراضٍ تتعارضُ مع المفاهيمِ العلميّةِ والبواعثِ المعرفيّة والحقوقِ الإنسانيّة.

فالمستشرقُ الفرنسي فرنسوا فولني ١٧٥٧ - ١٨٢٠ وبالتالي كتابُه: رحلةٌ إلى سورية ولبنان التي قام بها عام ١٧٨٣، أثّر كثيراً في نضوج فكرةِ الغزوة، وجعلَ قائدَها نابليون يتعرّفُ من خلاله على معالمِ البلادِ المصريّة ومرافقِها الحيويّة، خاصّة عندما وصفَ صاحبُ الكتابِ حالةَ مصر الدفاعيّة وميناء الإسكندريّة خالياً من التحصيناتِ العسكريّة والحامياتِ القتاليّة، وتطرّقَ إلى شكاوي تجار الفرنسيّين المقيمين في مصر، وأشار إلى ما أصاب الجاليةُ الفرنسيّة من سوء معاملةِ المماليك، وما تلقى من العنتِ والظلم. إضافةً إلى تقاريرَ مجالون ومذكراتِه، بعد أنْ عُيِّنَ قنصلاً عاماً لفرنسا عام ١٧٩٣، وهو التاجر الذي أقامَ في مصر أكثرَ من ثلاثين سنةً مشتغلاً بالتجارة، والذي يُبْينُ في تقاريره عبَثَ المماليكِ المصريّين بمصالح التجار الفرنسيّين، وأشارَ إلى ضرورة إزالةِ هذا العبثِ، من خلال استخدام قوّة فرنسا، وتحريضِ ساستها على احتلال مصر. وقد ذهب إلى فرنسا عام ١٧٩٧ خصّيصاً لهذه الغاية، وأخَذَ يحضّ

رجالَ الدولة على غزوها، بعد أنْ بيّن في تقريره إلى حكومة الإدارة في فرنسا المنافع العديدةَ، التي تنالُها فرنسا، وأقنع ووزيرَ خارجيّتِها تاليران ونابليون نفسه بآرائه، ونصحَ الحكومةَ بإيفاد الحملة.

لقد بذلَ الاستشراقُ وجمعياتُه العديدةُ جهوداً كبيرةً في دراسةِ علوم الشرق ولغاته، وكان يُقدِّم لحكوماته التقاريرَ السنويّةَ التي تتنافى مع البحثِ العلمي والحقائقِ الواقعيّة، والتي تنطوي على سموم من الحقد، وكثيرٍ من التزييفِ والمغالطة[1]، حتى إنّ ازدهارَ الاستشراقِ وانتشارَه دفعَ فيكتور هيجو عام ١٨٢٩ أنْ يعترفَ بسيلِ الدراساتِ الشرقيّة، ويقول: «في عصر لويس الرابع عشر كان الجميعُ هيلينيّين، أما الآن فالجميعُ مستشرقون ولدينا الآن عالمٌ متخصّصٌ في كلٍّ من مأثورات الشرق، من الصين حتى مصر..»[2].

أدركَ الاستشراقُ أهميّة هذه التقارير، وتفهّمَ أبعادَ المذكراتِ التي رُفِعَتْ إلى الحكومةِ الفرنسيّة. وكان

---

(١) د. أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ص٨٢.

(٢) مكسيم رودنسون: صورة العالم الإسلامي في أوروبة، مجلة الطليعة فبراير ١٩٧٠، القاهرة.

حاضراً على الساحة السياسيّة، وصاحبَ الفضلِ الهام في نشأةِ طبقةِ الساسةِ من رجالِ الاستعمار، الذين اعتمدوا على خبرات الاستشراقِ الواسعة، ووسائله المتنوّعة، وتوجّهوا لإعداد العدّةِ لاختراقِ دار العربِ والمسلمين.
ولعلّنا لا نبالغُ إذا قلنا أنه لولا الاستشراقُ لما تمكّنَ الاستعمارُ من أنْ يعرفَ شيئاً، أو أن يتدبّرَ أمورَه، مع الخاصّة من علماء البلاد ومثقفيها، أو مع العامّة وسواد العباد منها.

وهنا لا بدّ من التنويه بموقف المماليك المشرِّف من الجالية الفرنسيّة وازدياد عددها، ومن إدراكهم لخطورةِ توسيع علاقاتِها التجاريّة والاقتصاديّة، وخاصّة حين تفاقمَ أمرُ جالياتِها الغربيّة، وتعاظمت شكوكُ تحركاتها، بعد أن توافد أبناؤها زرافاتٍ ووحداناً إلى المنطقة المصريّة، تارةً باسم التّجارةِ، وتارةً أخرى باسم العلم، وأخذ المماليك بالتالي يفرضون الأتاواتِ الثقيلةَ على متاجرهم، ويسومونهم المشقّة، عسى أنْ تبور تجارتهم، وتضعف همّتهم، وتتثاقلَ خطواتُهم، ويضطروا إلى الرحيل عن مصر.

بيد أنّ الاستشراقَ الفرنسي أفشل مخطّطَ المماليك وعَكَسَ الهدفَ، ولجأ إلى حكومتِه، وَجَأرَ بالشكوى من سوء معاملةِ المماليك المصريّين، حتى اكتملتْ الخطةُ المرسومةُ، واستجابتْ له فرنسا، وأرسلتْ حملتَها إلى مصر.

أدّتْ دراساتُ المستشرقين الفرنسيّين غاياتها السياسيّةَ

في التوطئةِ لولوجِ الحياة المصريّة، والتمهيدِ لتقبّلِ مفاهيمِها الأجنبيّة، وتمكّنها من السيطرةِ على البلاد واحتلالِ الأراضي، تارةً تحت رايةِ العلم والمصلحة المعرفيّة، وتارةً أخرى باسم القوّة والقمع، ومحاولةِ كمّ الأفواه، وخنْقِ الحركاتِ والتمرّداتِ الثائرة. وقد اكتسبَ جهازُ الاستشراقِ، وبالتالي الاستعمارُ المتخفّي في عباءةِ العلم والبحث المعرفي، خبرةً واسعةً في البلاد العربيّة والإسلاميّة، فعايَشَ أهلَها وتفهّمَ أحوالَ سكانِها، منذ أنْ انساحَ في تركيا، مُسْتخفياً في أرجائها، وقبْلَ أنْ يظهرَ في بلادِ الشام ومصر وجوفِ أفريقيا، وبعد أنْ صارَ التنافسُ الأوروبي على أشدِّهِ في استعمار شعوبِ آسيا، واستغلالِ أفريقيا، وذلك عن طريق البعثات التي أُرسلَتْ تحت أسماء مختلفة، لكي تتعرّفَ على أحوالِ شعوبها، وتتمكّنَ من احتلالِ أراضيها. فالبرتغاليون حين عجزوا عن السيطرةِ على داخلِ الجزيرة العربيّة، ليؤمّنوا الطريقَ إلى بلاد الهند، وبالتالي حين سقطَ حلمُهم بالاستيلاء على جثمان النبي ﷺ في المدينة، أخذوا يُرسلون رجالَ الاستشراقِ ليرفدوهم بالمعلوماتِ المطلوبةِ، ويزوّدوهم بطبيعة بلاد العرب الشمالية[1].

---

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ص٨١.

لقد أقام الاستشراقُ في الهند أكثرَ من مائةِ وخمسين سنة في ظلّ الشركتيْن الكبيرتيْن: شركةِ الهند الشرقيّة البريطانيّة وشركةِ الهند الشرقيّة الفرنسيّة، ونال خبرةً واسعةً من خلال تغلغله وسْطَ جماهير الأمّة وطوائفها المختلفة، وتعرّف إلى مواطن الضعفِ والقوّة، من خلال خططه المدروسةِ ومنهاجِه المنظّم، في أجواء اتّسمتْ بالهدوء والصبّر، وتميّزتْ بالسريّة والكتمان. وكانت الحملة الفرنسيّة نذيرَ الاستشراقِ الذي كمن في أحشائها، وكان العقلَ المدبّرَ لقائدها نابليون، والدليلَ الذي أرْشدَه إلى معلوماتٍ دقيقةٍ وهداه إلى تفاصيلَ واضحةٍ، عن طبيعةِ الأرض وخصائص سكانها، وعرّفه إلى جغرافيّةِ مداخلِ البلدة ومخارجها. وهو نفسُه الاستشراقُ الذي حدّدَ معالمَ الحملةِ، ودفعَها ومعها علماؤها المتخصّصون، في مختلف العلوم والمعارف، على إحداثِ انبهارٍ مفاجئ، لِيَصْدمَ وعيَ الشعب، ويُذهلَ مداركَه، ويُدْهشَ عامَّتَه، ويجعلَه بالتالي يخفي مكرَه المستورَ، وخطَطَه الخبيثةَ، ليدمِّرَ روحَ المقاومةِ، ويُضعفَ من مقاومة الثائرين، ويؤثِّرَ في معنوياتِ جنوده، ويرفعَ من هممهم، ليثبِّتَ أقدامَهم في البلاد. بدليل أنّه في اليوم الثاني لدخوله مدينة القاهرة في ٢٥ تموز ١٧٩٨ أنشأ ديوانَه -

الحكومة ـ من مشايخ البلدِ وأعيانِها، الذي كان معدّاً سابقاً إعداداً كاملاً، من قبل أنْ تطأ أقدامُه أرضَ مصر، والذي اختار أسماءَه ممّنْ امتازوا بمركزهم الديني والاجتماعي، ومكانتِهم العلميّة، وموقفِهم المحايد من دخول الفرنسيّين.

كيف تعاملَ الاستشراقُ مع الوقائع المصريّة:

توصّل علماءُ الاستشراق إلى أنّ الحربَ لنْ تكونَ فقط بواسطة الأسلحة الناريّة أو الحرب الاقتصاديّة والماديّة، وإنما تكونُ بواسطة الخطاب السياسي والأداء الكلامي، الذي كثيراً ما تتحوّلُ خطاباتُه إلى أداةٍ أكثر فتكاً وفعاليةً من «الأسلحة الماديّة الحقيقية»[1]، لأنّه يذخرُ سلاحاً يفوقُ التصوّر، وقوةً هائلةً فعّالة. وبالأحرى أدركَ الاستشراقُ الفرنسي أهمّيّةَ فهمِ الحياة المصريّة والوقوفِ عند منطلقاتها المبدئيّة، سواء منها الدينيّة أو الاجتماعيّة، وعَرفَ كيف يتعاملُ بدقّةٍ مع مشايخ البلادِ وعلماء الأزهر، وبالتالي حاولَ أنْ يستغلّ قوّتَهم الشعبيّة وسلطتهم المعنويّة على عامّة

---

(١) محمد أركون: مكسيم رودنسون... الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة وإعداد هاشم صالح ص٨.

الناس، ويتزيّ بلباسِ الإسلام، ومخالطةِ كبارِ رجالاته في ندواتهم الفكريّة، ودروسهم الدينيّة، وأبهائهم الثقافيّة.

فقد طافَ جهازُ الاستشراق على الأئمّة والوجهاء وفاتحهم بأمر الحملة والدوافع العلميّة والسياسيّة، وبيّن لهم أنه على علم بمعاملةِ المماليك السيّئة للجالية الفرنسيّة، التي أُذِلّ أبناءُها، واحتُقِر تجارُها، وامتُهنت كرامتُها بالإيذاء والتعدّي، كذلك أظهر مقته لسوء تصرّف المماليك لجماهير أمة الإسلام، وظلْم سياستهم الجائرة، التي تعارضتْ مع العقيدة الإسلاميّة، وخالفتْ شريعتها الدينيّة، وأشار إلى جرأة المماليك وتماديهم في النيْل من هيبةِ مشايخ البلد، وادعى أنّ هدفَ فرنسا من حملتها هو رفع الظلم عن جمهور الناس، وتخليص الأمّة المصريّة من يدِ الظالمين، والقضاء على دولة المماليك الفاسدة، وإعادة زمام أمور البلاد إلى العلماء والفضلاء من أهالي مصر، وزعم أصحابه أنّهم على اتفاق مع السلطان العثماني، يحترمون مواقفَه السياسيّة، ويشايعون أحكامَه الفقهيّة.

هذه المزاعمُ المتنوّعة جعلتْ بعضَ أعيانِ البلاد وقلّةً من علماء الأزهر ينخدعون بمظاهرِ الحملةِ الإعلاميّة، وتنطلي عليهم أقوالُ قائدِها، ويمتنعون عن

مقاومتِه، ويستجيبون لمبادرتِه، وبالتالي يلينون لطلباتِه، ويرضخون لإرادتِه، ويستأنسون برغباته.

لقد استعملَ رجالُ الاستشراق وسائلَ عديدةً، وحاكوا طرقاً مختلفةً لنجاحِ حملتِهم الفرنسيّة. فتارةً وقفوا إلى جانب المشايخ ضد حكْم المماليك، وتارةً أيّدوا المماليك، وحاولوا تخفيفَ وطأةِ الحملةِ عليهم، وتارة غازل فريق آخر الأقباطَ، وَوَصَفَ وضعَهم الاجتماعي المتردّي، وحثّهم على رفْضِ الحالة الهمجيّة التي يعيشون فيها، وأشار بخبثٍ إلى تاريخهم الحضاري، الذي جمع عبقريّة قدماء المصريّين ـ سلالةِ الفراعنة ـ بالثقافة الإغريقيّة، وامتدح كنيستَهم بُغْيةَ إثارةِ النعرات الطائفيّة، وإغرائِها بالمكاسب الكبيرةِ إذا وقفت إلى جانبِ الحملة.

لكنّ فَشَلَ الاستشراقِ الذريع في طلبِ ودِّ الكنيسة، وإخفاقَ رجاله في نيْل رضاها، جعلَهم يولون وجوهَهم شطرَ نفر من الأقباط الأغنياء، الذين كانوا يتعاطون في الشؤون الماليّة وجباية حقوق الدولة، والذين أيّدوا توجّهات الحملة وسوّغوا أهدافها وكان على رأس المجموعة الألفي المعروف باسم «المعلّم يعقوب»، الذي جمعَ لهم من سفلةِ القبْط وعامّتِهم عدداً كبيراً، انضم إلى جيش الفرنسيّين.

إذا كان الاستشراقُ قد علمَ أهميّةَ السياسةِ الليّنة، وإذا كان التجأ إلى إثارةِ الفتَن وإحداثِ القلاقل، فإنّه ولا شكّ تفنّنَ في ضروبِ هذه الوسائلِ المتعدّدة، التي لم تُحبكْ أحابيلُها لو لم يكنْ على معرفةٍ بلغةِ أهلِ البلاد، ودرايةٍ بعاداتِهم، وعنايةٍ بلباسهم، الذي يُبَدِّلُه حسْبَ الظروفِ ومقتضياتِ الحياة، وقد دلّت منشورات نابليون الميكيافيلي على أنّ صاحبَها هو الاستشراق بعينه، الذي كان يَعُدُّ العدّةَ لكلّ حساب، ويتعايشُ مع كلّ الوجوه، ويمتشقُ كلَّ الأقنعةِ المموّهة، ظناً منه أنّ الشعاراتِ المموّهة قادرةٌ على أنْ تداهنَ أمةً عظيمةً، لها تاريخها وحضارتها الضاربةُ في أعماق التاريخ، وأنْ تخدعَ أمةً وتمنعَها عن قتاله. لكنْ ما أنْ اندلعتْ ثورةُ القاهرة، وتمرّدتْ الأقاليمُ، حتى سقطتْ أقنعتُهُ المزيّفة، التي كان يخفي وراءها حقيقةَ الحملةِ ورغبتَهُ في السيطرةِ والاحتلال، وراح ينكّلُ بجماهير الأمّة، ويتعسّفُ في ضروب الإذلال. وقد ارتكبَ من القمْع والذبح وسفْح الدماء ما لطّخ صفحاتِ تاريخِ بلاده، التي رفعتْ يوماً لغةَ العلمِ والعقلِ، ونادتْ بالشعاراتِ حريّة ـ مساواة ـ إخاء، التي على ما يبدو لم تستطعْ أن ترى النورَ حتى انتفضت القوى الباغيةُ في حكومةِ الثورة، وسوّغتْ لنفسها فكرةَ الاعتداء والعدوان.

فقد أعدم نابليون عند مشرقِ كلّ شمسٍ خمسةَ أو ستّةَ أشخاصٍ من طلابِ الأزهر، وضحّى بخيرةِ الشباب المثقّف لأنهم حرّضوا على مقاومته. والغريب أنّ الاستشراقَ لم يكنْ غائباً عن هذه المسرحيّة ـ المجزرة ـ لأنّه هو نفسُهُ لم يتورّعْ عن تقديمهم للجزار، وهو العليم بتطلعاتهم، والدريّ برغباتهم.. وأنه بالتالي كان حاضراً وكامناً في أحشاء نابليون، يلقّنُهُ دروسَه العملية، ويوجّهُ أعمالَه، ويدرّبُه على معرفةِ أساليبِ المراوغةِ والمداهنة. وكان على رأسِ الاستشراق في الحملة المستشرقُ فانتور، كبيرُ مترجمي الحملةِ ومستشارُ نابليون في شؤونِ العربِ والمسلمين، ومرجعُه في المشاكلِ الخاصّة ببلاد الشرق، وترجمانُ السفارةِ الفرنسيّة في الآستانة قبل قدومه إلى مصر.

ويعدّ المستشرقُ فانتور من كبار المستشرقين المعروفين بالحنْكة والدهاء والرياء. ظلّ أربعين سنةً يتجول في البلاد العربيّة والإسلاميّة، قبل أنْ يلتحقَ بالحملةِ الفرنسيّة، وكان لبيباً فطناً تبحّرَ في لغاتِ الشرق، فعرف التركيّةَ والعربيّةَ والروميّةَ والطليانيّةَ والفرنسيّةَ[١].

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار، دار الجيل، بيروت ج٣ ص٦٨.

وكما ذكرنا كان خليلَ نابليون ومستشارَه، عملَ في السرّ والخفاء، لدرجة أنّ الجبرتي لم ينتبه له ولأمثاله من المستشرقين إلاّ بعد أنْ كشفَ قناعَه، وأتى مرافقاً للحملة. وكان لا يفارق نابليون في حلّه وترحاله، وهو الذي أوْحى إليه فكرةَ تدجينِ مشايخِ مصر الكبار من رجال الأزهر، وتعيينِهم في ديوان وزارته، ضماناً لكسب ثقةِ الجماهير المصريّة. وقد ماتَ في الحملة على بلاد سورية[(١)]، أثناء حصارِ عكا والمقاومةِ التي لقيَها هناك، والتي اضطرتْ نابليونَ إلى رفْع الحصارِ عنها، بعد أنْ فَقَدَ آلافاً من جيشه، وعشراتٍ من عُلمائه وقوّاده ومستشرقيه.

وهكذا يتبيّن أنّ الاستشراقَ سلَكَ طرقاً عدّة للوصول إلى هدفه. فمن تصوير حالة الشعب، واهتمامه بطبقاته الاجتماعيّة، وتفهّمه لتدهور أوضاعه الاقتصاديّة، إلى تناوله موضوعةَ الاستقرارِ والحلولِ المقترحة، التي ردّها سواء إلى التفاوتِ الاجتماعي والطبقي الموجود بيْن الحاكم والمحكوم، أو إلى تغليب المصلحة الخاصة على

---

(١) د. ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا ١٩٩١ ص ص٦٨.

العامة. فقد قال فولني في هذا الصدد: «إنّ هوى وتطلّعاتِ الخواص لا تتجّه في المجتمع المصري إلى المصلحة العامّة، ولكنّها تعكسُ دوماً شهواتِهم ومصالحَهم الذاتيّة»[1]. وإنّ المجتمَع المصري عرفَ طبقةً من المماليك الجهلة، الذين حكموا البلادَ بالقوّة والإرهاب، وساسوا العبادَ بالقمعِ والاستبداد، واستأثروا بملكيةِ الأرضِ والثرواتِ الطبيعيّة. وكانوا شاهداً عمليّاً على صحّةِ أقوالِ فولني، وخاصة في السنوات الثلاث العجاف ١٧٨٣، ١٧٨٤، ١٧٨٥ التي مرت بها مصر، والتي انتشرتْ فيها المجاعةُ والفقر، وعاشَ الشعبُ المصريُّ في أثنائها، تجربةً قاسيةً، وأزمةً صعبةً، أدّتْ بالمحصّلةِ حسب فولني إلى إعلانِ الثورةِ على الأتراك، وتقسيم الأمبراطوريّةِ العثمانيّة، وتحريرِ شعوبها الشرقيّة من نير حكّامِها، وإلى الجهْر بدعوته فرنسا إلى احتلال مصر، وإقامة علاقاتٍ متينةً مع أبنائها. وهي الدعوةُ التي نفّذها نابليون بعد عشر سنوات، وأيّدتْها حكومةُ الإدارة في فرنسا.

يتبيّنُ من ذلك كلّه أنّ نابليون وكبارَ الساسةِ في

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ص١٣٦.

دُولِ الغرب قد تأثّروا بأفكار المستشرقين، الذين أحاطوهم بتفاصيلَ هامّةٍ عن أحوال المجتمعاتِ الشرقيّة، بعد أن كتبوا تقاريرهم المتنوّعةَ ومؤلفاتِهم المختلفة، التي استُخْدِمَتْ لأغراضٍ مشبوهةٍ ولغاياتٍ سياسيّة، بُغْية السيطرةِ والاحتلال، والاستئثار بالثروات الطبيعيّة والخيرات الماديّة.

الفصل الثالث

دور الاستشراق الإنكليزي في احتلال مصر

استُخدم الاستشراقُ في مراحله الأخيرة لأغراضٍ سياسيّة وأهدافٍ استعماريّة، واستُغلّت كتابات أصحابه ومؤلفاتُهم لإضعافِ المعنويّات العربيّة، والتشكيكِ بتراث الأمّة، وللسيطرةِ على بلدانها النامية، واستغلال ثرواتها الطبيعيّة.

كان الاستشراقُ الخلفيّةَ الفكريّةَ للصراع الحضاري بيْن الشرق والغرب، وأصبح بالتالي انعكاساً لظاهرةِ الاستعمار، الذي تبلورتُ مخطّطاتُه بقوّة في نهاية التاسع عشر، والنصفِ الأوّلُ من القرنِ العشرين، وباتَ بمثابة دليلٍ كاشفٍ، ومعلوماتِ معرفةٍ، في شعاب منطقةِ الشرق، من أجل فرضِ السيطرةِ عليه وإخضاع شعوبه.

إذا كان الهدفُ من الاستشراق، في مراحله الأولى، ثقافياً وعلميّاً، إلاّ أنّه سرعان ما تطوّر، وتحوّلَ إلى هدفٍ ديني واقتصادي، قبلَ أنْ يظْهرَ في مطافه

الأخير، بحركته السياسيّةِ والاستعماريّة، وبدولته إنكلترا التي استطاعت أنْ تستعمرَ عدداً من الدول العربيّة، وأن تُصْدقَ القولَ: «يأتي المبشّرُ ـ الاستشراقُ ـ ثم التاجرُ، وفي إثْرهما البارجةُ الحربيّة»[1].

استغلَّ رجالُ الدولةِ في بريطانيا المستشرقين، وأخذوا بآرائهم، وعادوا إلى اقتراحاتِهم في الأمور السياسيّة الهامّة، المتعلّقة بالأمم العربيّة والإسلاميّة. فمثلاً السير أنطوني إيدن[2] لم يكنْ يأخذُ قراراً، قبل أنْ يجتمعَ بأساتذته من المستشرقين، من أمثال اليهودي ديفيد صموئيل مرجليوث ١٨٥٨ ـ ١٩٤٠ ـ أستاذ اللّغةِ العربيّة في جامعة أكسفورد ـ الذي كانَ من ألدّ أعداءِ الثقافة العربيّة والإسلاميّة، والذي وضعَ جميعَ جهودِهِ في خدمةِ السياسةِ الاستعماريّة والصهيونيّة العالميّة. وقد برهنَ إيدن عن وفائه لأستاذه، والتزامه بأفكار حركته العنصريّة، عندما تبيّن أنّه لم يُصْدِر قراراً في عهده لصالحِ عربِ فلسطين، سواء كان وزيراً للخارجيّة، أو

---

(١) د. صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص١٨٤.

(٢) ولد عام ١٨٩٧، سياسي بريطاني، تولى وزارة الخارجية مراراً منذ ١٩٣١، وخلف تشرشل في وزارة الخارجية في الفترة ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧.

رئيساً للحكومة، وإنما كانتْ جميعُ قرارتِه مؤيّدةً لمشاريع الصهيونيّة، ومخطّطاتِها التوسعيّة، العدوانيّةِ والاستيطانيّة.

استفادتْ بريطانيا من نشاطاتِ مستشرقيها الفكريّة والوظيفيّة، وجيّرتْها في خدمة مصالحها السياسيّةِ والاقتصاديّة، خاصةً بعد أنْ جنّدتْ عدداً منهم، عملوا في الحقل السياسي والديبلوماسي، وتبوّؤا مناصبَ هامّة في القوّاتِ العسكريّة، أو أصبحوا موظفينَ في وزارةِ المستعمراتِ البريطانيّة[1]. ونظراً لصعوبة الإحاطة بجميع هؤلاء المستشرقين، فإننا سنكتفي بنماذجَ، فاقتْ شهرتُها حدودَ بلادها، وكان لها تأثيراتٌ فاعلةٌ، على قراراتِ المرحلةِ وأحداثِها الجسام. نذكرُ على سبيل المثال أدوارد هنري بالمر ١٨٤٠ ـ ١٨٨٢ المستشرقَ الإنكليزي، وأحدَ عملاء الاستعمار البريطاني، الذي لقِيَ حتفَه في مصر جزاءً لعمله، والذي كان كبيرَ مترجمي القوّاتِ البريطانيّة في مصر. اقتصر عمله على معرفةِ عادات البدو وأعرافِهم، والاتصالِ بأهلِ سيناء، وتأليبِ أهلها ضدّ ثورةِ أحمد عرابي، واستخدامهم لتأمين الجانبِ الشرقي من قناة السويس لصالح بريطانيا، وكان ينفّذُ مهامَه، وهو يلبسُ الزيَّ العربيَّ الكامل،

---

(١) ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا ص٣٤.

وقد قُتل في كمينٍ، نُصِبَ له من قبل بعضِ بدو مصر، وأُلْقيَ به مع زملاء له، في وادٍ سحيقٍ من سيناء.

الكتاباتُ الاستشراقية واحتلالُ مصر:

استفادتْ إنكلترا من وجودِ المستشرقين في سيناء، وسخّرتْهم للاتصالِ بأهلها، واستخدمتْهم في بثّ نفوذها عند القبائلِ المصريّة. فأثّرت على توجّهاتِ قادتها، ومنعتْ قيامَ ثورةٍ، تنضمّ إلى القضيّة المصريّة، وأقنعتْ جماهيرَها، بعدم وجود مصلحةٍ لهم في الانضمام إلى حركةِ أحمد عرابي. وبالتالي عمدَ الاستشراقُ، المتخفّي بالسلك الاستخباري، إلى إبقاء العربِ، في دوّامة من الفوضى السياسيّة، داخل دويلاتٍ متنافرة، من خلال مخطّطٍ محكم، يَرمي لضرب حركةِ القوميّة العربيّة من الداخل. وقد لحظَ الصهيوني ماكس نوردو أهميّةَ هذه القضيّة، فأشار أوائل هذا القرن إلى إمكان استغلال حركة القوميّة العربيّة، لضرب العرب أنفسِهم، بحكام الأمبراطوريّة العثمانيّة، للقضاء على الاثنيْن معاً في فلسطين، التي سيدخلها اليهودُ فارغةً من السكان[1].

---

(١) زهدي الفاتح: لورانس العرب على خطى هرتزل، دار النفائس، بيروت ط٢ ١٩٨٠ ص٣٤.

قدّمتْ الحركةُ الاستشراقيّةُ خدماتٍ عدّةً للاستعمار الغربي، ولاقتْ استحساناً مميّزاً عند الساسة الغربيّين، الذين أحاطوها بعنايةٍ فائقة، وكلّلوها بمهمّاتٍ جسام، أخذتْ على عاتقها، توفيرَ أفضلِ السبل، لخدمة المصالح الأجنبيّة والأهداف السياسيّة.

فمثلاً سلكَ اللوردُ اللنبي الطرقَ الصحراويّةَ التي اكتشفها المستشرقون، واستعانَ بمسالكها خلال الحرب العالميّة الأولى، وحقّقَ النصرَ في فلسطين. كذلك لا نجانبُ الحقيقةَ إذا قلنا، لولا تقاريرُ لورانس عن حركات العرب، لما تقدّمتْ الحملةُ الإنكليزيّةُ، وأنجزتْ مهمتَها المرسومة، بهذه السرعة، ولربّما لم تظفرْ بهذا النصر.

لقد لعب لورانس العرب ١٨٨٨ ـ ١٩٣٥ المعروف بأسماء عدّة مثل أميرُ مكة، وملك العرب غير المتوّج، دوراً هاماً في السياسةِ الدوليّة، وكان النموذجَ الحيَّ للاستشراق البريطاني والغربي. قدّم خدماتٍ عديدةً للاستعمار، ويمكنُ اعتبارُه مَثَلاً واضحاً على تسخير الاستشراق للأهداف السياسيّة الاستعماريّة، خاصّة وأنّ الهيئاتِ السياسيةَ في بريطانيا قد تعهّدتْه منذ صغره، حين أبدى رغبةً قويّةً، في الاطلاع على الآثار التاريخيّة القديمة، والاهتمام بالاستراتيجيّة الحربيّة، بعد أنْ قدُمَ

إلى بلاد الشرق ـ سورية ـ والتحقَ بمدرسةٍ تابعةٍ للإرساليّة الأميركيّة، حيث استزاد من علم لغة العرب، وأتقنَ لهجاتهم المختلفةَ[1]، وألّف كتاباً جغرافياً، أثناء الحرب العالميّة الأولى، عن منطقة سيناء، استعملته القوّاتُ الغازيةُ البريطانيّة دليلاً لها، في تنقّلاتها عبْرَ طرقاتها الداخليّة، وممراتها الخارجيّة.

ولا نجانب الحقيقةَ إذا قلنا إنّ لورانس دُعيَ إلى مكتب الاستعلامات البريطاني في القاهرة، وسخّر معارفَه الاستشراقيّة في مصلحة خدمةِ المستعمرات، وَوَضَعَها بتصرّف قلم الاستخبارات، والمسؤولِ عن بلاد الشرق الأوسط، وإنه أفاد القواتِ الغازيةَ في مختلف النواحي، سواء من الناحية الميْدانيّة والجغرافيّة، حيث تمتّع بموهبةٍ واسعة، في رسم الخرائط وتفسيرِ رموزها، أو من الناحية العسكريّة، حيث عرفَ الكثيرَ عن أوضاع الجيش التركي، واطلعَ على معلوماتٍ واسعة عن عادات الشعب العربي في سورية ومصر، وتعرّف إلى أوضاعه الاجتماعيّة والاقتصاديّة السيّئة، ووقفَ على الاحتقانِ السياسي، الذي بشّر ـ على حد قول لورانس ـ بالثورة

---

(١) أنتوني ناتنج: لورنس لغز الجزيرة العربية، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٢ ص٩.

على الأتراك، وقُرْبِ انحلال الأمبراطوريّة العثمانيّة[1]، التي ارتابت به على حد قوله، منذ بداية عمله، في جهاز المخابرات البريطانيّة عام ١٩١٢، عندما كتب يقول إلى هوغارت - عالم الآثار الإنكليزي - وضابط الاستخبارات البريطانيّة، والمتخصّص بشؤون الشرق الأوسط الذي كان كنظرائه الألمان، صلة الوصل بين أجهزة مخابرات بلاده وأساتذة الجامعات والأكاديميين في البلاد العثمانية. يقول: «هذه الدولة العجوز ما زال فيها بعضُ حياة، إنها تراقبني»[2].

وبالفعل أصبح لورانسُ خبيراً بالمواقع الاستراتيجيّة، ومرجعاً للمعلومات الدقيقةِ عن منطقة الشرقِ الأوسط، وطبيعة تكوينها، ومعالمها الطوبوغرافية، خاصّة بعد أنْ حوّلته الاستخبارات البريطانية، من عالم آثارٍ إلى عسكري خبيرٍ في شؤون المنطقة، وعيّنتْه في دائرة الخرائط، التابعة لرئاسة القوّات البريطانيّة، لدرجة أنّ الضبّاطَ كانوا يستشيرونه بشأن أيّة خطّةٍ يريدون الاتّفاقَ

---

(١) لورنس العرب: أعمدة الحكمة السبعة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط رابعة ١٩٨٠ ص٢٣.

(٢) زهدي الفاتح: لورنس العرب على خطى هرتزل ص٣٤.

عليها. وقد تنقّلَ في وظائفه، فانخرطَ في سلْك الاستخبارات العسكريّة، واشتغلَ في دائرة المخابرات السريّة، وتولّى عمليّةَ استجوابِ أسرى الأتراك، بُغْية معرفةِ أماكن قوّاتهم، وعدد جنودهم، وأحرز نجاحاً باهراً، ممّا جعل هذا السلكَ يتقدّمُ بسرعة، وتكتملُ عناصرُه، ويُصبح شديدَ البأس، وثيقَ الالتصاق بجهاز المعلوماتيّة، التي تمثّلتْ بشبكة من رجال استخبارات، أقاموا علاقات مباشرة مع قادة الإنكليز، سياسيين وعسكريين، أمثال اللورد هربرت كيتشنر ١٨٥٠ ـ ١٩١٦ الذي فتح أم درمان في السودان، وأقام في مصر، بجانب أستاذه دايفيد هوغارت المذكور آنفاً. ولعبتْ هذه الشبكةُ دوراً بارزاً في المنطقةِ العربيّة، وكان لورانس تحت ستارِ البحثِ العلمي والحركة الاستشراقيّة، بمثابة عيونِ إنكلترا وآذانها. وشاركتْ في المعارك العسكريّة أثناء الحرب العالميّة الأولى، ومارستْ عملاً تجسّسيّاً، وصفه أحدُ أركانِ الاستخبارات الإسرائيليّة ـ الموساد ـ بقوله: «إنّ شبكاتِ الجاسوسيّة ما هي إلاّ نوعٌ من الحرب الباردة، وإنها حربُ أدمغةٍ لا حرب سلاحٍ ونار»[1].

---

(١) د. صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص١٩٠.

وجد لورانس فرصتَه الضائعة، يوم أعلنَ العربُ الثورةَ على الأتراك، بقيادة الشريفِ حسين بن علي ١٨٥٦ ـ ١٩٣١، ووقفوا إلى جانب الحلفاء، بهدف نيْل الحريّة والاستقلال، وبناء الدولةِ العربيّة. فاتصل بالأمير عبد الله ـ الابن الثاني للشريف حسين ـ، وأدرك منذ لقائه الأوّل به، أنّه لا يصلحُ أنْ يكونَ قائدَ الثورة[1]، فأقام علاقةً وثيقةً مع الملك فيصل ـ الابن الثالث ـ واندفع في ميادين القتال، يحثّ العربَ على الانتصار للحلفاء، وتشجيعِهم على مناهضة الأتراك وقتالهم بقوّة، لصالح قضيّتِهم العادلة، وراح يؤكّدُ أنّ الحلفاءَ ـ الإنكليز والفرنسيين ـ سيفون بوعودهم، وسيُعلنون استقلالَ بلادِهم، ويُقيمون دولتَهم العربيّة بقيادة الشريف حسين. وكان تصرّفُه، وهو يلعبُ دورَ ضابطِ الارتباط بين قادة الثورة وبريطانيا، نابعاً من سياسة المراوغة التي اعتمدتْها إنكلترا مع العرب، حين أوهمتْهم أنّها نصيرةُ قضيّتِهم، وحاميةُ مصلحتِهم، وحقِّهم في إقامة دولتِهم الحرّة.

وهذا ما يُفسِّر معنى مناصرته للقضايا العربيّة، والوقوفِ بجانبِ قادة الثورة العربيّة، وإكثاره من الظهورِ

---

(١) لورنس العرب: أعمدة الحكمة السبعة ص٣٤.

باللباس العربي، في القاهرة أو حتى في باريس، أثناء انعقاد مؤتمر الصلح، أو عند مرافقةِ قائد القوات البريطانيّة في مصر إلى الخرطوم، للقاء القائدِ العام للقوّات في شبه الجزيرة العربيّة. علماً أنه قد حَدَّد في تقرير سرّي، رفعه إلى المخابرات البريطانية في كانون الثاني عام ١٩١٦، أهدافَ بريطانيا الرئيسة من الحرب فقال: «أهدافُنا الرئيسة تفتيتُ الوحدة الإسلاميّة، ودحْرُ الأمبراطورية العثمانيّة وتدميرُها»[١]، والإبقاءُ على بلاد الشرق الأوسط منقسمةً على نفسها، ومفتّتةً إلى دويْلاتٍ متناحرة.

وقد أكّدت الوقائعُ أنّ لورانس غدر بالعرب ولم يفِ بوعده، الذي من أجله حارب العرب، وأنّه كان مصمّماً على إلحاق البلدان العربيّة، بالأمبراطورية البريطانيّة بدليل قوله: «لقد ساعدْتُ على حبْك المؤامرة... وخاطرتُ لتحقيق أملنا بانتصارٍ سريع... والأفضلُ لنا أنْ ننتصرَ وننكثَ بوعدنا من أنْ ننكسر»[٢]، وأنّه كان يتخوّفُ من سياسةِ فرنسا في سورية، وقد عبّر عن هواجسه، في رسالةٍ وجّهها إلى أستاذه هوغارت،

---

(١) زهدي الفاتح: لورنس العرب على خطى هرتزل ص٣٤.
(٢) زهدي الفاتح: لورنس العرب على خطى هرتزل ص٧٠.

أعربَ فيها عن أطماع فرنسا في الشرق الأوسط قائلاً: «إنني أرى أنّ فرنسا لا تركيا هي عدوّتُنا فيما يتعلّق بسورية»[1].

بيْد أنّ الأقوالَ التي تحدّثتْ عن صُدْق لورانس في تعامله مع العرب، لم تكنْ دقيقةً ومحقّةً، والأصح أنّ مثلَ هذه الأحاديث، جاءتْ من باب المراوغة والادّعاء الكاذب، لأنّ لورانس في سعيه إلى منْح العربِ الحريّةَ والاستقلال، كان ينطلق من اعتباراتٍ محدّدة، لا تخرجُ عن إلحاقِ البلدان العربيّة، بالأمبراطوريّة البريطانيّة، لأنّه يعتقدُ أنّ هذا الزعمَ، هو الوسيلة الفضلى لحثّ العرب على مساندة الإنكليز في حربهم، ودفْعِهم للقتال إلى جانبهم. وهذا ما جعله يتفهّم معنى رسالة القائد اللنبي، التي بعثها إلى الأمير فيصل عند دخوله دمشق، والتي يُعلمُه فيها أنّ دُوَلَ الحلفاء قد اعترفت بالقوّات العربيّة المحاربة، كقوّات حليفةٍ ضد العدو المشترك[2].

ولعلّ مماطلةَ الإنكليز بتحقيقِ الوعود والأماني العربيّة، جعلتْ لورانس يرتدّ على نفسه، وربما يحاسبُه ضميرُه، وتعتورُه أحاسيسٌ بالذنب مخيفة، وأزماتٌ

---

(١) د. صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق ص١٩٠.

(٢) حكمت ياسين: السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية، الدار التونسية للنشر ١٩٨١ ص٥٨.

وجدانيةٌ، خاصّةً بعد أنْ عرفَ باتفاقيّة سايكس بيكو، التي قضتْ بتقسيم بلاد العرب بيْن إنكلترا وفرنسا، ولعلّه تذمّر لسوء حالةِ العرب، فلام نفسَه، لأنّه كان أحدَ منفّذي المؤامرة، بعد أن فتنَ بسحر بلاد العرب، ونبْلِ أخلاقهم، وشهامةِ نفوسهم، وبسالةِ فرسانهم، وعظمةِ أعرافهم، وأصالةِ معتقداتهم، فحاول أنْ يُعوّضَ عن قلقه الوجداني، بالوقوف إلى جانب الأمير فيصل، في مؤتمر الصلح في باريس، ويدافع عن القضيَّة العربيّة، وأحقّيّة مطالبها، وأنْ يُبعدَ فرنسا عن فرض هيمنتها على سورية ولبنان.

ولكنّ لورانس عندما شعر بفشل سياسته، الداعيةِ إلى أنْ ينالَ الحجازُ استقلالاً كاملاً، ويتولى الأمير فيصل بلاد سورية، وأنْ تكون فلسطين تحت إشراف بريطانيا، استاء من غدر بريطانيا، وتذمّرَ من إلحاح فرنسا فَرْضَ هيمنتها على سورية ولبنان، وبلغت مأساتُه الشخصيّة أنْ أحسّ بدوّارٍ يلُفّ كيانَه، ويقضي على أعصابه، حتى انهار عقلُه. ويُقال إنّه جَلَدَ نفسَه كلَّ صباح، علّه يُكفِّر عن الذنوب التي ارتكبها بحقّ العرب، الذين أحبّهم بإخلاص، بعد أنْ قلبتْ بلادُه لهم ظهر المجن، وأنّه توفّي شبه منتحرٍ، متأثراً بجراحه، ويُقال: إنّه توفّي عقبَ حادثِ سيرٍ طرحه عن دراجته البخاريّة، وسقوطه على

جمجمته وكسرها. وقد نعتْه جريدةُ التايمز اللندنيّة، بعرْض صفحتها الأولى، كما تفعلُ مع رؤساء الوزارات، وَوُضع له تمثالٌ نصفي، في كاتدرائيّة القديس سان بول في لندن، إلى جانب تماثليْ نلسون وولنغتون، وبكاه ونستون تشرشل في جنازته في ١٣ أيار من عام ١٩٣٥، وَوَصَفَه بأنّه أكثرُ رجالات بريطانيا العظماء شهرةً، وأكّد أنّه لن يظهرَ له في القريب مثيلٌ.

لقد برز دور لورانس في الحربِ العالميّة الأولى، وحقّق نشاطاً ملحوظاً في مختلفِ المجالات ـ السياسيّة والعسكريّة والاستخباريّة ـ في مصر أو في العراق وسورية والجزيرة العربيّة. ونستطيعُ القولَ إنّ بصماتِ لورانس واضحةٌ في توقيع اتفاقيّة سايكس بيكو وبنودِها الخطرة، لأنّ مارك سايكس كان أحدَ أصدقائه، وإنّ هذه الاتفاقيّة صهيونيةٌ، بدليل اعترافِ الموقّعين عليها بالحركة الصهيونيّة من جهة، وتأييد زعماء الصهيونيّة مثل حاييم وايزمن لها من جهة أخرى. مع العلم أنّ لورانس نفسَه لم يخْفِ تأييدَه لوعد بلفور، ولام مَنْ احتجّ ضده وعارضه، وتمنّى حمْلَ آماله، والعملَ على تحقيق مقترحاته والعمل بتوجيهاته.

ولهذا لا غرابة في أنْ يؤيّدَ الصهاينةُ أعمالَ لورانس

الأدبيّة، وأن يمدحَ السير هربرت صموئيل ـ أوّلُ مندوب سامي بريطاني في فلسطين والصهيوني الصديق للورانس ـ كتابه أعمدة الحكمة السبعة بقوله: «إنه سيظلّ نموذجاً على أضخم ما أنتجتْه العبقريّةُ»، التي كانتْ ستاراً أخفتْ وراءها سياسةَ إنكلترا التجسسيّة، وواجهةً حيكتْ خلالها، أكبرُ جرائمِ العصر، التي ارتُكبتْ في العصر الحديث، بحق العربِ والإنسانيّة جمعاء، والتي تَمثّلتْ بجريمة ذبحِ شعبِ فلسطين، وطرْدِهِ من أرْضه، وتشريدِه من دياره، وإقامةِ شعبٍ غريبٍ على أرضه، بعد أنْ اغتصبَها عُنوةً، وأنشأ دولتَه الصهيونيّة.

الاستشراقُ الإنكليزيُ واليقظةُ العربيّة القوميّة:

عرف المستشرقون أهميّة اليقظة العربيّة والإسلاميّة، التي بدأت تباشيرُها في مهد الجزيرة العربيّة، وفي بلاد مصر الواسعة، فوجفت قلوبُهم، وهبّ جهازُهم، خليّةَ نحلٍ يتسارعون لنقْل ذخائر مصر الفكريّة والعلميّة إلى أوروبا، ووضعوها في تصرّفِ ملوكها وأمرائها، بعد أنْ وصفوها بالخطر الداهم، الذي سيهدّدُهم، إذا ما اكتملتْ هذه اليقظةُ، واشتدّ عودُها، واستقامتْ خطواتُها. لذلك نبّهوا أوروبا إلى ضرورة العمل السريع، لمعالجة هذه اليقظة في مهدها، قبل أنْ

يستفحلَ أمرُها، وتُصبحَ قوّةً قادرةً على الصراع والحركة والانتشار، لأنّ الاستشراقَ كان يدركُ أنّ الفرقَ بين النهضةِ العربيّة الإسلامية ـ اليقظة ـ وبيْن نهضة أوروبا وحركة تنويرها، يكاد يكونُ خطوةً، تستدركُها أمّةُ العرب بالوعي والهمّة، أي بيقظة حقيقيّة ونهضةٍ كاملة، تقومُ على إحياء التراث، وبعثِ اللغة، والعودة إلى المصادر الصافية، التي طمستْ معالمَها الحضاريّة والثقافيّة كرُّ الدهورِ ومرور القرون، لأنّ معظمَ رجال الاستشراق كانوا «عينَ الاستعمار التي بها يُبْصرُ ويحدّق، ويدَه التي بها يُحسّ ويبطشُ، ورجلَه التي بها يمشي ويتوغّل، وعقلَه الذي به يفكّر ويسْتبينُ، ولولاه لبقي في عميائه يتخبط»[1].

لهذا أسرعَ مستشرقو إنكلترا إلى سواحل جزيرة العرب، بدهائهم العروف ودسائسِهم الحاقدة، وجاؤوا في زيّ المناصر والمعين، ليراقبوا يقظةَ محمد بن عبد الوهاب ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ ونهضتَه، القائمةَ على تنقيةِ الدين ممّا تراكم عليه من البدع، المفسدةِ لعقيدة التوحيد، والعودةِ إلى الكتاب والسنة، وإحياء الشريعة

(١) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢ ص١١٩.

الأولى، ووجوب بعثها من جديد. هذه اليقظةُ التي قال عنها المستشرقُ ولفرد سميث، وهو يدرس الإسلام، وفقَ منهجه الجديد: إنّها فكرةٌ مثاليّةٌ لا يمكنُ الوصولُ إليها[1]. وبالتالي هذه اليقظةُ وحركتُها الوهابيّة، التي استظلّتْ بظلّها دولةُ بني سعود، سرعان ما وقفتْ ضدها بريطانيا، وعادت مَلِكَ دولتها عبد العزيز بن سعود، الذي هاجمه لورانس، وطالبَ بالقضاءِ عليه وعلى نظام حكمه بالقوّة، وأشار إلى ضرورة شنّ حربٍ ضده، واستعادةِ مكّة، إذا أصرّ على تبنّي الوهابيّة ولم يليّنْ من سياسته[2].

جاء المستشرقون ليراقبوا يقظةَ اللغة العربيّة على يد عبد القادر البغدادي، والمرتضى الزبيدي، ويقظةَ علومِ الحضارة على يد الجبرتي الكبير. اليقظةُ التي وقعَتْ بيْن منتصفِ القرن السابع عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي، والتي دفعتْ البغدادي أنْ يهبّ في عصره، ويُؤلّفَ في أمّهات المصادر العربيّة، واستطاعَ أنْ يُعيدَ لأمّتها العربيّة قدرتَها على تذوّقِ فنونها الأدبيّة، ويردَّ

---

(١) د. عابر بن محمد السفياني: المستشرقون، دار المنارة، جدة ١٩٩٢ ص٤٨.

(٢) زهدي الفاتح: لورنس العرب على خطى هرتزل ص١٣٦.

لها فطرتَها اللغويّة في الشعر والأدب والعلوم العربيّة الأخرى. وهي نفسُها اليقظة التي جعلت كلّاً من ابن عبد الوهاب أن يهب وسط الركام الهائل من المفاسد والخرافات، ليكافح البدعَ والعقائد الدخيلة، التي خالفتْ ما كان عليه سلفُ الأمّة من صفاءِ عقيدةِ التوحيد، والمرتضى الزبيدي أنْ يصارعَ الجمودَ ولغةَ الركود، ويبْعثَ التراثَ اللغوي والديني، وينهضَ بعلوم العربيّة وعلوم الإسلام، والجبرتي الكبير ـ وكان فقيهاً كبيراً، ونابهاً عالماً باللغة العربيّة وعلم الكلام ـ قام يغذّي النهضةَ في وثباتها، وولى وجهَه شطرَ العلوم، التي كانتْ تراثاً مستغلقاً على أهل زمانه، فجمع كتبَها، وحرصَ على لقاءِ مَنْ يعلم سرَّ ألفاظها وجوهرَ رموزها، حتى ملكَ ناصية علومها في الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضاريّة، في النجارة والخراطة والحدادة والنقش... وقد مارسَ كلَّ ذلك بنفسه ولجأ إليه مهرةُ الصنّاع يطلبون علمَه، وينهلون من ثقافته الفنيّة. قال عنه ابنه عبد الرحمن الجبرتي: «حضر إليه طلابٌ من الإفرنج، وقرأوا عليه علمَ الهندسة، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم... وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم... فاستخرجوا به الصنائعَ البديعة مثلَ طواحينِ الهواء وجرّ الأثقالِ

واستنباط المياه...»[1].

لم يضن الجبرتي على مستشرقي الإفرنج بعلومه، ولا أساء بهم الظنّ، لأنّه كان على خُلُقِ أهل الإسلام وقيمه العربيّة. فقد عمل بما جاءتْ به أدبيّات نبيّه الذي يقول: «مَنْ سُئل عن علمٍ فكتمَه، ألجمه اللّهُ يوم القيامة بلجامٍ من نار»[2].

دوّت أسماء هؤلاء النهضويّين في أرجاء البلاد، تؤذّنُ بيقظةٍ جديدة، تُحيي علمَ الأمّة، وتبعثُ لغتها وثقافتها، وتُعيدُ سيطرتَها على مصادر القوّة الإبداعيّة، ومسبّبات حضارتها القديمة، التي ملأتْ الدنيا وشغلتْ الناس، من دون أنْ يشعروا ما كان يجري في الديار الأوروبيّة من يقظةٍ أجنبيّةٍ ونهضةٍ أوروبيّة ـ كانت في بداية طريقها ـ اعتمدتْ أساساً على ما كان عندنا من العلم المسطور في كتبنا، وكانت بحاجة إلى استبانة، فك الرموز وصعوبة فهم الألغاز.

ولعلّ الفرق بيْن اليقظتيْن هو أنّ يقظتَنا كانتْ

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار، الجزء الأول ص٣٩٧.

(٢) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى رسالتنا ص٨٥.

هادئةً، سليمةَ الطويّة، منبعثةً من داخل وجودها، وأنّ هدفَها استعادةُ شبابها، وتجديدُ نضرتها، وأنّ مبادئها مثّلَتْ تهويداً لمصالح الدول الغربيّة، وخطراً انحصر في مواجهة الظلم والاستبداد، وهذا ما أكده عبد الحميد بن باديس في قوله، إنّ نهضتَنا القائمةَ أركانها على الدين، كانتْ سلاماً على البشريّة، «لا يخشاها النصراني لنصرانيّته، ولا اليهودي ليهوديّته، بل ولا المجوسي لمجوسيّته، ولكنْ يجبُ والله أنْ يخشاها الظالمُ لظلمه، والدجّالُ لدجله والخائنُ لخيانته»[1]، في حين أنّ يقظةَ الغرب كانتْ متفجّرةً بحقدٍ قديم، وغطرسةٍ عنصريّة، وكيدٍ مكظوم، شيمتُها السطو الخفي، ووسيلتها الحيلةُ والمكرُ والدهاء، وهدفُها اختراقُ دار المشرق، وإعدادُ العدّة للقمع والاستغلال. هما يقظتان كانتا في زمنٍ واحد، إحداهما شيمتُها الرفقُ والمحبّة، والأخرى من طبيعتها العدوانُ والاعتداء.

علماً أنّ يقظتَنا العربيّة العلميّة لم تكنْ أنانية، وأنها لم تحصرْ نهضتَها بأبناء البلاد المحلّيّين، ولم تبخلْ على مَنْ حضر من طلاّبِ الإفرنج المستشرقين، ممّنْ قرأوا

---

(١) مازن المطبقاني: الغرب في مواجهة الإسلام، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة ص٥٣.

علمَ الهندسة على يد الجبرتي الكبير، ونقلوها إلى أوروبة، وطلبوا العملَ السريعَ لوأدها في مهدها، ومعاجلتها بطعنةٍ قاتلة، قبل أنْ يُستفحلَ أمرُها، وتُصبحَ قوّةً قادرةً على الصمود والانتشار.

وقد أظهرتْ الدراساتُ في السنوات الأخيرة أنّ الغربَ اهتم بيقظة البلاد العربيّة والإسلاميّة وما زال بغْية وضْعِ الخططِ اللازمةِ لاحتواء الصحوةِ وضربها، وأنّ أميركا اعتمدتْ معرفتُها المشرقيّة على الدراساتِ الأكاديميّة، التي ظهرتْ بعد الحرب العالميّة الثانيّة في دراسة برنارد لويس في كتابه «اللغة السياسيّة في الإسلام»، أو كتابه «الغرب والشرق الأوسط»، والتي كان من أبرزها كتابُ ولفرد كانتول سميث: «الإسلام في التاريخ الحديث»، الذي صدر بمساعدةِ مؤسّسةِ روكفلر اليهودي الأميركي، التي أغدقتْ المساعداتِ الماليّة على مركز الدراسات الإسلاميّة في كندا[١]، وكتاب المستشرق الإنكليزي هاملتون جب: «الاتجاهات الحديثة في الإسلام»، الذي استقدمتْه الولاياتُ المتحدة ليرئسَ قسمَ دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد المشهورة،

---

(١) مازن المطبقاني: الغرب في موجهة الإسلام ص٣٤.

وليواصلَ كتاباتهِ وبحوثَه في شؤون العالم الإسلامي، لأنّ أوروبة أدركت ومنذ الحروب الصليبيّة، حين كان التعصّبُ الديني على أتمّه، أهميّةَ معرفةِ العلوم العربيّة، واستعمالها وسيلةً لفهم القرآن، وبالتالي سلاحاً في مناقشته[1] بعد أنْ تأكّد لها أنّ لغةَ الحرب لم تعطها ما تبتغي، وأنّ لغةَ المعرفة والعلم أمَرُّ من السيف وأدهى. ولهذا عقد الغربُ مؤتمراً كبيراً في فيينا عام ١٣١١م ترأسه البابا كليمان الخامس، وقرّر ملوك أوروبا وأمراؤها أنْ يؤسّسوا في باريس واكسفورد وسلمنكة مدارسَ خاصّة، تُدرّسُ فيها العربيّةُ والعبرانيّة والكلدانيّة، لتخريج وعّاظٍ أشداء يستطيعون تنصيرَ المسلمين واليهود، وتشكيكَهم في معتقداتهم الإيمانيّة[2].

وهكذا يتبيّن أنّ الاستشراقَ والإنكليزي خاصّة التفّ على حركة الانبعاثِ العربي والإحياء الإسلامي، بالدهاء والدسيسة، وأتى في زيّ المناصر والمعين، ليسيطرَ على اليقظة، ويحتويها من الداخل، وكان في

---

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب المعاصر ص٧٤.

(٢) المصدر نفسه ص٧٤.

الوقت نفسه يؤلّبُ تركيا عليها، ويخوّفُ جاراتِها من حركتها، ليطوقَها ويقضيَ عليها.

ويُلاحظ أنّ الاستشراقَ عملَ في أجواءٍ آمنةٍ، ومُناخاتٍ جيّدة، سواء في تركيا أو في بلاد الشام ومصر، وأنّ رجاله جابوا البلادَ مطمئنين، بسبب سماحةِ أهلِ البلاد، ونبْلِ مشاعرهم الإنسانيّة، وأنهم داهنوا العلماء والخاصّة ونافقوهم، وأوهموهم أنّ صدورَهم بريئةٌ، وقلوبهم خالصةٌ لحبّ العلم والمعرفة. الأمرُ الذي زاد الاستشراق اطمئناناً، وأغراه بإعداد الأجهزة لتحقيق أهدافه الاستعماريّة، فبدأ زحفَه الشامل، واخترقَ البلادَ بلا قعقعة سلاح، وتَقَدَّم بصمتٍ وخطى ثاقبة، وهو يضمُّ ألوفاً من المستشرقين، ما بيْن تاجرٍ وسائحٍ ومبشّرٍ وسياسيٍ وطالبِ علم...

فهرست الأعلام

- غ -

- ف -

- ك -

- ل -

- م -

المَصَادِرِ وَالمَراجِعُ

١ ـ أربري: المستشرقون البريطانيون، ترجمة الدسوقي النويهي.

٢ ـ أركون ـ ردونسون. . : الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت ١٩٩٤.

٣ ـ ناصر الدين أسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٦.

٤ ـ جمال الدين الأفغاني: الكتابات السياسية، المؤسسة العربية، بيروت ١٩٨١.

٥ ـ بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر.

٦ ـ عبد الرحمن البدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت ط أولى ١٩٨٤.

٧ ـ عبد الرحمن البدوي: دراسات المستشرقين حول حجة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩.

٨ ـ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ط التاسعة ١٩٨٠.

٩ ـ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، مطبعة دار المعارف ١٩٦٢.

١٠ ـ عبد الرزاق البصير: حول تبسيط اللغة العربية، مجلة الكويت، العدد ٧.

١١ ـ محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠.
١٢ ـ محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، بيروت، ط الخامسة ١٩٧٠.
١٣ ـ أرنولد توينبي: محاضرات أرنولد توينبي في الجمهورية العربية المتحدة، الدار القومية، القاهرة، دون تاريخ.
١٤ ـ عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار، دار الجيل، بيروت.
١٥ ـ ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط أولى ١٩٨٢.
١٦ ـ أنور الجندي: شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثانية ١٩٨٣.
١٧ ـ أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدامة ومعاصرة، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
١٨ ـ أنور الجندي: إطار إسلامي للفكر المعاصر، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٠.
١٩ ـ أنور الجندي: الإسلام والحضارة، المكتبة العصرية، بيروت.
٢٠ ـ بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، القدس ١٩٢٨.
٢١ ـ جولد زيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين، دار الرائد العربي، بيروت.
٢٢ ـ ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا ١٩٩١.

٢٣ ـ فيليب حتي: تاريخ العرب، دار الكشّاف، طبعة رابعة ١٩٦٥.
٢٤ ـ أحمد عبد المعطي حجازي: رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر، دار الآداب، بيروت ١٩٧٩.
٢٥ ـ طه حسين: في الأدب الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط الثانية عشرة ١٩٧٧.
٢٦ ـ طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة.
٢٧ ـ مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩.
٢٨ ـ شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٥.
٢٩ ـ يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية، منشورات جمعية أهل القلم، لبنان ١٩٥٦.
٣٠ ـ محمد عزة دروزة: القرآن والملحدون، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٣.
٣١ ـ عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، مطبعة الرسالة، عابدين، القاهرة ١٩٦٤.
٣٢ ـ عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، دار المعارف، مصر ١٩٨١.
٣٣ ـ مكسيم رودنسون: الإسلام والرأسمالية، ترجمة نزيه الحكيم، بيروت ١٩٦٨.
٣٤ ـ مكسيم رودنسون: صورة العالم الإسلامي في أوروبة، مجلة الطليعة، فبراير، القاهرة ١٩٧٠.
٣٥ ـ محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مطابع الدوحة الحديثة، الكويت ١٩٨٣.

٣٦ ـ نفوسة زكريا: الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤.

٣٧ ـ صالح زهر الدين: التبشير وأثره في جبل لبنان، منشورات رسالة الجهاد، مالطا، ط أولى، كانون أول ١٩٨٦.

٣٨ ـ صالح زهر الدين: المنطقة العربية في ملف المخابرات الصهيونية، المركز العربي للأبحاث، بيروت، ط أولى ١٩٨٥.

٣٩ ـ صالح زهر الدين: الإسلام والاستشراق، دار الندوة الجديدة، بيروت ١٩٩١.

٤٠ ـ مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩.

٤١ ـ إدوار سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨١.

٤٢ ـ إدوار سعيد: تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٩٦.

٤٣ ـ عابد بن محمد السفياني: المستشرقون، دار المنارة، جدة ١٩٩٢.

٤٤ ـ أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، مصر ١٩٧٤.

٤٥ ـ رضوان السيد: ثقافة الاستشراق وعلاقات الشرق بالغرب.

٤٦ ـ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: تراثنا الثقافي بين أيدي المستشرقين، الكويت ١٩٥٧.

٤٧ ـ عائشة عبد الرحمن: تراثنا بين ماضٍ وحاضر، معهد البحوث والدراسات، القاهرة ١٩٦٨.
٤٨ ـ محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢.
٤٩ ـ أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق في ما هو الفارياق، مكتبة العرب، القاهرة ١٩١٩.
٥٠ ـ عبد الجليل عبده شلبي: صور استشراقية، المكتبة العصرية، بيروت، كانون ثاني ١٩٧٢.
٥١ ـ أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط الثانية ١٩٨٩.
٥٢ ـ عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط السابعة ١٩٦٦.
٥٣ ـ محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: التبشير والاستشراق، أحقاد وحملات الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩١.
٥٤ ـ عمر لطفي العالم: المستشرقون والعالم، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ط أولى ١٩٩١.
٥٥ ـ محمد عبده: الأعمال الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٧٢.
٥٦ ـ أنور عبد الملك: الاستشراق في أزمة، ترجمة حسن قبيسي.
٥٧ ـ لورنس العرب: أعمدة الحكمة السبعة.
٥٨ ـ صادق جلال العظم: الاستشراق والاستشراق معكوساً.
٥٩ ـ نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، مصر ١٩٦٤.

٦٠ ـ محمد عمارة: الإسلام والوحدة القومية، المؤسسة العربية، بيروت ١٩٧٩.
٦١ ـ محمد عمارة: الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١ ١٩٧٧.
٦٢ ـ محمد عمارة: الإسلام والوحدة القومية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٧٩.
٦٣ ـ لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، دار الهلال، مصر ١٩٦٩.
٦٤ ـ محمد غلاب: نظرات استشراقية في الإسلام، دار الكتاب العربي، القاهرة، دون تاريخ.
٦٥ ـ زهدي الفاتح: لورنس العرب على خطى هرتزل، دار النفائس، بيروت، ط الثانية ١٩٨٢.
٦٦ ـ عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم، بيروت، ط الثانية ١٩٧٨.
٦٧ ـ عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط الرابعة ١٩٨٠.
٦٨ ـ محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٣.
٦٩ ـ محمد إبراهيم الفيومي: في الفكر الديني الجاهلي، دار المعارف، مصر ١٩٨٤.
٧٠ ـ حسن قبيسي: رودنسون ونبي الإسلام، دار الطليعة، بيروت، ط أولى ١٩٨١.
٧١ ـ ذوقان قرطوط: تطور الفكرة العربية في مصر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٧٢.

٧٢ ـ كريمر: الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، ترجمة مصطفى بدر، القاهرة، بدون تاريخ.
٧٣ ـ إسماعيل الكيلاني: فصل الدين عن الدولة، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٠.
٧٤ ـ نجيب الكيلاني: الإسلامية والقوى المضادة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٠.
٧٥ ـ غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثانية ١٩٧٩.
٧٦ ـ برنارد لويس: العرب في التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود زايد فارس، دار العلم، بيروت ١٩٥٤.
٧٧ ـ عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، منشورات مكتبة الجامعة العربية، بيروت ١٩٦٦.
٧٨ ـ مازن المبارك: اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي، دار النفائس، بيروت، ط الثانية ١٩٨١.
٧٩ ـ مصطفى نصر المسلاني: الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، دار اقرأ، ليبيا، ط أولى ١٩٨٦.
٨٠ ـ جميل عبد الله محمد المصري: دواعي الفتوحات الإسلامية، دار العلم، دمشق ١٩٩١.
٨١ ـ مازن المطبقاني: الغرب في مواجهة الإسلام، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة، دون تاريخ.
٨٢ ـ منذر معاليقي: معالم الفكر العربي في عصر النهضة، دار اقرأ، بيروت ١٩٨٦.

٨٣ ـ صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط أولى ١٩٧٨.
٨٤ ـ طلال المهتار: آثار الحملة الفرنسية على مصر، كلية الحقوق، الجامعة اللبنانية ١٩٦٢.
٨٥ ـ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، بيروت ١٩٨٢.
٨٦ ـ أنتوني ناتنج: لورنس لغز الجزيرة العربية، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٢.
٨٧ ـ مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، بيروت، دار الإرشاد ١٩٦٩.
٨٨ ـ شكري النجار: لم الاهتمام بالاستشراق.
٨٩ ـ رجاء النقاش: الانعزاليون في مصر، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط أولى ١٩٨١.
٩٠ ـ حسين الهراوي: المستشرقون والإسلام، مطبعة المنار، القاهرة ١٩٣٦.
٩١ ـ محمد حسين هيكل: حياة محمد، ط الخامسة ١٩٥٢.
٩٢ ـ مونتجومري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق.
٩٣ ـ مونتجومري وات: الفكر السياسي الإسلامي، ترجمة صبحي الحديدي، دار الحداثة للطباعة، بيروت، ط أولى ١٩٨١.
٩٤ ـ حكمت ياسين: السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية، الدار التونسية للنشر ١٩٨١.

الدوريات العربية:

١ ـ مجلة الباحث البيروتية، العدد ٢٥ ك٢ شباط ١٩٨٣.

٢ ـ مجلة الرسالة، العدد ١١١، السنة الثالثة ١٩٣٥.

٣ ـ مجلة رسالة الجهاد، مالطا، العدد ٦٦، أيار ١٩٨٨.

٤ ـ مجلة رسالة الجهاد، العدد ٦٧ حزيران ١٩٨٨.

٥ ـ مجلة الطليعة، فبراير، القاهرة ١٩٧٠.

٦ ـ مجلة العربي، الكويت، العدد ٥١ شباط ١٩٦٣.

٧ ـ مجلة العربي، الكويت، العدد ٣٦٠ ت٢ ١٩٨٨.

٨ ـ مجلة العربي، الكويت، العدد ٣٢ نيسان حزيران ١٩٨٣.

٨ ـ مجلة العربي، الكويت، العدد ٥٢ آب ١٩٨٨.

١٠ ـ الفكر العربي، بيروت، العدد ٣١ آذار ١٩٨٣.

١١ ـ الفكر العربي المعاصر، بيروت، عدد ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢، ١٩٨٢.

١٢ ـ مجلة الفيصل، العدد ٥٢ آب ١٩٨١.

١٣ ـ مجلة الفيصل، العدد ٢٧ آب ١٩٧٩.

١٤ ـ مجلة الكويت، العدد ٧.

١٥ ـ مجلة المجمع العربي، سنة ٢٣.

١٦ ـ مجلة المجلة، العدد ١٥٨، شباط ١٩٨٣.

١٧ ـ مجلة الموقف الأدبي، السنة الرابعة، العدد ٩، كانون الثاني ١٩٧٥.

١٨ ـ مجلة الهلال، العدد ٣٣.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

مِنْ أعمَال المؤلّف

- **معالم الفكر الأدبي في عصر النهضة**، دار إقرأ، بيروت ١٩٨٦.
- **أدب عرب الجاهلية والإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٨.
- **صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهليّة**، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٩٥.

هذا الكِتَاب

جاء هذا الكتاب بعد قراءة أكثر من مائتي كتاب ومجلة، جعلته بحثاً أكاديمياً، ومرجعاً هاماً لكلِّ باحثٍ في ميدان الاستشراق ومدارسه، ولكلِّ طالبِ علمٍ يبغي معرفةَ ذخائر الأمة، والمكائد الهجوميّة التي كنّا وما زلنا نتعلّق بها لتصحيحها وتحريرها من الزيف والخطأ، وبالتالي أصبحنا مطالبين بإعادة صياغة قواعد مجتمعنا، والعمل على بناء أجيال واعية، تحمل أمانة العمل الإنساني، وتقدِّم الحلول لقضايا العصر المعقدة، لقيام مجتمع قادر على العطاء، يحقِّق العدالة، ويُقيم الحرية، ويحمي الإنسان.

من المقدّمة